الاتجاه النقدي في التفسير عند الإمام ابن كثير

إعداد الباحث: سعد سعد مسعود الأحمد

باحث دكتوراه بقسم الشريعة الإسلامية

بكلية دار العلوم – جامعة القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب ٧٠: ٧١]

أما بعد:

فإن من نعم الله – تبارك وتعالى– على هذه الأمة، أن جعل فيها أئمة يحملون لواء العلم خلفًا عن سلف، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، فيرفعون عن كاهل الأمة أثر الغفلة، ويرتفعون بها من دركات الجهل والتخبط إلى درجات العلم والبصيرة.

ولما كان رسولنا بشرا، وكان الموت نصيبه، وانتهاء الأجل حليفه– ولا شك– فقد خيره ربه– جل وعلا– بين البقاء فيها إلى يوم القيامة وبين جوار ربه الكريم، فاختار الثانية، فكان لزامًا– وقد ختم الله به الرسالات– أن يقوم مقامه من الناس من يحفظون عنه هذا الإرث العظيم، فاصطفى الله له الصحابة الكرام كما اصطفى الله –سبحانه– الرسل والأنبياء من الناس، فكانوا كما قال الله– تعالى– عنهم: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح:٢٦].

فكان الصحابة– رضي الله عنهم– يفهمون القرآن وفق أصلين رئيسين: أحدها شرعي، والآخر لغوي، فأما الشرعي فهو فهم القرآن وفق ما نزل به من مصطلحات خاصة وأحكام شرعية محكمة بأصول التشريع، وأما اللغوي فلكون القرآن نزل بلسان عربي مبين؛ فعلى هذا الاعتبار كانت له نصوص تفهم وفق ما نزل به من لغة.

ثم تتابعت الأجيال وتواترت الدهور، وما زال كل جيل يعطي ويبذل في خدمة القرآن الكريم كل حسب طاقته وفتح الله له، ولقد كان ابن كثير – رحمه الله تعالى– أحد المفسرين الذين اشتهروا وذاع صيتهم، وعرف تفسيره بين طلاب العلم وقصاده بأنه تفسير أثري يقوم على تفسير القرآن بالقرآن ثم بالسنة والآثار، فأحببت أن أعرض في هذه الدراسة لجانب من جوانب هذا التفسير، وهو: الجانب النقدي وبيان طريقته فيه.

خطة الدراسة:

تنقسم هذه الدراسة إلى مقدمة، وأربعة مباحث:

المقدمة: وفيها التعريف بالموضوع ، وخطة دراسته.

المبحث الأول: التعريف بابن كثير.

المبحث الثاني: مصادر ابن كثير في تفسيره.

المبحث الثالث: منهج ابن كثير في تفسيره.

المبحث الرابع: منهج ابن كثير في النقد.

المبحث الخامس: أثر منهج ابن كثير النقدي في التفاسير المتأخرة.

- **خاتمة البحث وأهم نتائجه.**
- **فهرس المصادر والمراجع.**
- **فهرس المحتويات.**

المبحث الأول
التعريف بابن كثير

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: اسمه ونسبه ومولده:

هو الإمام إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن ضوء بن زرع، عماد الدين أبو الفداء ابن الشيخ شهاب الدين أبي حفص القرشي البصروي الدمشقي الشافعي، المعروف بابن كثير، وُلد سنة (٧٠١هـ)، في قرية مجيدل من أعمال بُصْرى الشام،وسبب تسميته بإسماعيل، تيمنًا بأخيه الأكبر من أبيه الذي سلك طريق العلم.

عاش ابن كثير في دمشق، وقد كان أبوه خطيبًا ببلدة مجيدل القُرَيَّة إلى أن توفِّي سنة (٧٠٣هـ)، وبقي ابن كثير تحت رعاية أخيه كمال الدين عبد الوهاب، وكان أخوه عبد الوهاب هذا بمنزلة الأب والشيخ الأول لابن كثير، الذي أخذ منه الشيء الكثير، واستمر في ملازمته والاستفادة من علمه طوال حياته التي امتدت إلى سنة (٧٥٠هـ)[(١)].

المطلب الثاني: طلبه العلم:

درس الإمام ابن كثير على أيدي المئات من الشيوخ، نذكر منهم: القاسم بن محمد البرزالي مؤرخ الشام (ت ٧٣٩هـ)، والشيخ يوسف بن عبد الرحمن المزي (ت ٧٤٤هـ)، والحافظ ابن القلانسي (ت ٧٢٩هـ)، وإبراهيم بن عبد الرحمن الفزاري (ت ٧٢٩هـ)، ونجم الدين ابن العسقلاني، وابن الشحنة شهاب الدين الحجار (ت ٧٣٠هـ)، وكمال الدين ابن قاضي شهبة، والشيخ نجم الدين موسى بن علي بن محمد الجيلي ثم الدمشقي المعروف بابن البصيص (ت٧١٦هـ)، والحافظ شمس الدين الذهبي (ت

(١) البداية والنهاية ١٨/٤٢.

٧٤٨هـ) كما أخذ عن القاسم ابن عساكر وابن الشيرازي وإسحاق الآمدي وغيرهم الكثير.

المطلب الثالث: صفات ابن كثير:

امتاز ابن كثير بصفات أهلته لتكوين ملكة التفسير والبراعة فيه والنقد في آن واحد؛ ومن تلكم الأمور:

١. ذكاؤه وبراعته، وحفظه القوي، وسرعة الاستحضار، وقوة البديهة، وغيرها من الصفات التي مكنته من حيازة عدة علوم وحفظها وإتقانها في سن صغيرة.

٢. حفظه للقرآن في سن مبكرة يقول – رحمه الله– عن شيخه البعلبكي: «شيخنا الصالح العابد الناسك الخاشع شمس الدين أبو عبد الله محمد ابن الشيخ الصالح العابد شرف الدين أبي الحسن بن حسين بن غيلان البعلبكي الحنبلي، إمام مسجد السلالين بدار البطيخ العتيقة، سمع الحديث وأسمعه، وكان يقرئ القرآن طرفي النهار، وعليه ختمت القرآن في سنة إحدى عشرة وسبعمائة»[(١)].

٣. تميزه في علم الحديث ورجاله، وخبرته ودرايته فيه، مما انعكس على تفسيره انعكاسا واضحا خاصة في نقده للإسرائيليات والأحاديث الضعيفة. قال تلميذه ابن حِجِّي: «كان أحفظ مَن أدركناه لمتون الأحاديث، وأعرفهم بجرحها ورجالها، وصحيحها وسقيمها، وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك»[(٢)].

٤. حفظه للمتون العلمية المختلفة في شتى الفنون وإتقانها بشكل ملفت، وكذلك الفَهْم الجيد؛ مما نال إعجاب شيوخه، فترجموا له، وأضاء عقول تلاميذه، فتحدثوا عنه يقول شيخه الذهبي: «فقيه متقن، ومتحدث متقن، ومفسر نقال، وله تصانيف مفيدة

(١) البداية والنهاية ٣٢٦/١٨.

(٢) طبقات المفسرين للداودي ١١٢/١.

يدري الفقه ويفهم العربية والأصول، ويحفظ جملة صالحة من المتون والتفسير والرجال وأحوالهم، أذكر الإسناد سمع مني، وله حفظ ومعرفة، يدمج قراءته»[١]، ويقول تلميذه ابن حجي: «وكان فقيهًا جيد الفهم، صحيح الذهن»[٢].

٥. من الصفات التي تميز بها ابن كثير، وجعلت منه مفسرا ناقدا بارعا هي: حرصه على السنة قولا وعملا، والدعوة إلى اتِّباع السلف، وهو ما يظهر لنا جليا عند قراءة كتبه ومؤلفاته، ولعل انطباعه بالحديث له أثر بالغ على هذا التوجه، وكذلك تأثره بشيخه أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحنبلي الذي أخذ ابن كثير من طريقته محاربة البدع والخرافات، والذي كان يتألم بسبب وجودها وانتشارها، وقد كانت له خصوصية بالشيخ تقي الدين ابن تيمية، ومناضلة عنه، واتباع له في كثير من آرائه، وكان يفتي برأيه في مسألة الطلاق، وامتحن بسبب ذلك، وأوذي، ولما مات دفن بمقبرة الصوفية عند شيخه ابن تيمية[٣] ، ويقال بأن ذلك كان وصية منه – رحمه الله–.

٦. من الأمور البارزة التي جعلت لابن كثير صدى كبيرًا وقويًا ولأقواله قبولًا عند الخاصة والعامة ولنقده اعتبارًا وصدى، هو: العدل والإنصاف لاسيما مع الخصوم وهذا ما حدث مع ابن كثير في ترجمته لكثير من خصومه في الرأي والفكر والمواقف، فيصفهم بالحق والعدل، ولا يتجنى عليهم، ولا ينقصهم صفة لهم؛ ومن تلكم المواقف: ما كان بينه وبين تاج الدين السبكي، وكانت بينهما منازعات وخلافات في مسائل عدة إلا أن هذا الخلاف لم يدفع ابن كثير إلى الانتقاص من السبكي حينما أتيحت

(١) المعجم المختص بالمحدثين ص٧٥، لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، بتحقيق: د.محمد الحبيب الهيلة، طبعة: مكتبة الصديق– الطائف– المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

(٢) طبقات المفسرين للداودي ١/١١٢.

(٣) المصدر السابق.

له الفرصة، وهذا يذكرنا بمواقف شيخه ابن تيمية – رحمه الله– مع خصومه يقول – رحمه الله– في أحداث سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة: "وفي يوم الجمعة السادس عشر قبل العصر ورد البريد من الديار المصرية بطلب قاضي القضاة تقي الدين السبكي إليها حاكما بها، فذهب الناس للسلام عليه ولتوديعه، وذلك بعدما أرجف الناس به كثيرا، واشتهر أنه سينعقد له مجلس للدعوى عليه بما دفعه من مال الأيتام إلى ألطنبغا وإلى الفخري، وكتبت فتوى عليه بذلك في تغريمه، وداروا بها على المفتين، فلم يكتب لهم أحد فيها غير القاضي جلال الدين بن حسام الدين الحنفي، رأيت خطه عليها وحده يومئذ بعد الصلاة، وسئلت في الإفتاء عليها فامتنعت؛ لما فيها من التشويش على الحكام، وفي أول مرسوم نائب السلطان أن يتأمل المفتون هذا السؤال ويفتوا بما يقتضيه حكم الشرع الشريف، وكانوا له في نية عجيبة، ففرج الله عنه بطلبه إلى الديار المصرية، فسار إليها صحبة البريد ليلة الأحد، وخرج الكبراء والأعيان لتوديعه»[1].

المطلب الرابع: مؤلفات ابن كثير:

ترك ابن كثير– رحمه الله– مجموعة ثمينة من المؤلفات التي كانت حصيلة ما منَّ الله – تعالى– به عليه من علم وفهم ثاقب، ظهر ذلك فيما كتبه وألفه، وفيما جمعه وصنفه.

قال ابن حجر العسقلاني: «كان كثير الاستحضار، حسن المفاكهة، سارت تصانيفه في البلاد في حياته، وانتفع الناس بها بعد وفاته»[2].

---

(١) البداية والنهاية ١٨/٤٥٤.

(٢) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ١/٤٤٥، لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، بتحقيق: محمد عبد المعيد ضان، طبعة ونشر: دائرة المعارف العثمانية –حيدر آباد الهند، الثانية: ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

وقال العيني عن تصنيفاته وبراعته فيها: «كان قدوة العلماء والحفّاظ، وعمدة أهل المعانى والألفاظ، وسمع وجمع وصنّف ودرّس وحدّث وألّف، وكان له اطلاع عظيم في الحديث والتفسير والتاريخ واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهى إليه علم التاريخ والحديث والتفسير، وله مصنّفات عديدة مفيدة»[(١)] .

ومن أبرز تلك المؤلفات:

١-تفسير القرآن العظيم [(٢)] .

٢-البداية والنهاية [(٣)] .

٣-التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل[(٤)].

---

(١) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٢٣/١١،ليوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (ت ٨٧٤هـ)، طبعته وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، في ج مصر، طبع سنة ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م تقريبًا.

(٢) وله عدة طبعات: منها طبعة دار طيبة للنشر والتوزيع بتحقيق سامي بن محمد سلامة تقع في ثمانية مجلدات، ومنها طبعة دار الكتب العلمية في بيروت بتحقيق محمد حسين شمس الدين، وقد طبعت سنة ١٤١٩هـ، وأما غالب الطبعات الجديدة فأغلبها يقع في أربعة مجلدات ضخمة وبخط صغير يتعب العين والقلب معا .

(٣) ولها طبعات: أولها طبعة دار الفكر بدون تحقيق والتي طبعت سنة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م، والتي تقع في خمسة عشر جزءًا، والطبعة الثانية طبعة دار إحياء التراث العربي بتحقيق: علي شيري سنة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، في أربعة عشر جزءًا، والطبعة الثالثة وهي أفضلها وأكملها دقة وأضبطها تحقيقا وهي طبعة دار هجر بتحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، والذي طبع ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، ونشر لأول مرة سنة: ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م، ويقع في واحد وعشرين جزءًا أحدها للفهارس.

(٤) جمع فيه كتابي شيخيه المزّي والذهبي وهما: "تهذيب الكمال في أسماء الرجال" و"ميزان الاعتدال في نقد الرجال"، مع زيادات مفيدة في الجرح والتعديل طبعه ونشره مركز النعمان للبحوث والدراسات الإسلامية وتحقيق التراث والترجمة في اليمن سنة ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م بتحقيق الدكتور شادي بن محمد بن سالم آل نعمان ويقع في أربعة مجدات.

٤-فضائل القرآن[١].

٥-مسند الفاروق عمر بن الخطاب والآثار المروية عنه[٢].

٦-الهَدْي والسنَن في أحاديث المسانيد والسنن[٣].

٧-طبقات الشافعية[٤].

٨-الباعث الحثيث في اختصار علوم الحديث[٥].

٩-السيرة النبوية[٦].

المطلب الخامس: وفاة ابن كثير:

توفي – رحمه الله– يوم الخميس السادس والعشرين من شهر شعبان سنة ٧٤٤هـ (٢٦ شعبان من سنة (٧٧٤هـ)) بدمشق، وخرجت بدمشق جموع غفيرة لتشييع

---

(١) طبعته ونشرته مكتبة ابن تيمية في القاهرة، وصدرتها في طبعتها الأولى سنة ١٤١٦ هـ، بتحقيق حجازي شرف محمد المشهور بأبي اسحاق الحويني المصري.

(٢) طبعته دار الوفاء — المنصورة في مصر حرسها الله بتحقيق عبد المعطي قلعجي، وقد صدرت في طبعتها الأولى: ١٤١١هـ - ١٩٩١م في مجلدين، وله طبعة ثانية طبعتها دار الفلاح، الفيوم — مصر، بتحقيق إمام بن علي بن إمام، وقد صدرت الطبعة: الأولى منها سنة ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م في ثلاثة أجزاء.

(٣) وهو المعروف بجامع المسانيد، جمع فيه بين مسند الإمام أحمد والبزار وأبي يعلى ومعجمي الطبراني مع الكتب الستة: الصحيحين والسنن الأربعة، ورتبهعلى الأبواب وهو مطبوع في عشرة أجزاء بتحقيق الدكتور عبد الملك بن عبد الله الدهيش، طبعته دار خضر في بيروت بجمهورية لبنان، سنة ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م.

(٤) مجلد وسط، ومعه مناقب الشافعي، وله طبعتان: الأولى بتحقيق الدكتور أحمد عمر هاشم، والدكتور محمد زينهم محمد عزب، طبعته ونشرته مكتبة الثقافة الدينية، في سنة ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م والثانية: طبعة دار الوفاء - المنصورة، بتحقيق أنور الباز، طبع وصدر سنة ٢٠٠٤م وهي أتم وأضبط من الطبعة الأولى.

(٥) وقد اختصر فيه مقدمة ابن الصلاح المعروفة، له عدة طبعات أشهرها بتحقيق العلامة أحمد محمد شاكر، طبعتها دار الكتب العلمية، في بيروت بجمهورية لبنان .

(٦) مطبوعة بتحقيق: مصطفى عبد الواحد في أربعة مجلدات، طبعة ونشر دار المعرفة للطباعة في لبنان١٣٩٥هـ - ١٩٧٦م.

جنازته، ودفن بمقبرة الصوفية عند شيخه ابن تيمية خارج باب النصر من دمشق حسب وصيّته – رحمه الله–.

يقول ابن ناصر الدين عن عظم جنازته – رحمه الله–: « .. وكانت جنازته حافلة مشهودة ودفن بوصية منه في تربة شيخ الإسلام ابن تيمية بمقبرة للصوفية خارج باب النصر من دمشق»[(١)].

(١) الرد الوافر ص٩٢، لابن عبد الهادي محمد بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن مجاهد القيسي الدمشقي الشافعي، شمس الدين، الشهير بابن ناصر الدين (ت ٨٤٢هـ)، بتحقيق: زهير الشاويش، طبعة: المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة الأولى: ١٣٩٣هـ.

المبحث الثاني
مصادر ابن كثير في تفسيره

لما كان ابن كثير قد امتاز بكثير من العلوم وحاز كثيرًا من الفنون انطبع ذلك كله على التفسير فمن تأمل تفسيره وجد من حسن الترتيب والتأليف ما لم يسبقه إليه أحد ممن قبله، بل إن كل من جاء بعده حاول أن يقتبس شيئا من فنياته في التفسير، كيف لا وهو أول مفسر قد شن حملة شعواء[1] ضارية على الأحاديث النبوية الضعيفة من جهة، وعلى الإسرائيليات من جهة أخرى، كما سيتبين لنا عند دراسة منهجه النقدي في التفسير.

وأما بخصوص مصادر ابن كثير في تفسيره فيحسن بنا الوقوف على مصادر ابن كثير التفسيرية والتي ذكر أنه رجع إليها في تفسيره، وقد أحصاها الدكتور إسماعيل سالم عبد العال في كتابه: (**ابن كثير ومنهجه في التفسير**)[2]، وسأقتصر على أهمها بعد القرآن الكريم:

أولًا: الكتب السماوية: التوراة، وأشار أنه نقل من نسختين، الإنجيل.

ثانيا: أهم مصادره في التفسير: تفسير ابن أبي حاتم، (ت ٢٢٣هـ)، تفسير البغوي – معالم التنزيل للحسن بن مسعود بن محمد الفراء، (ت ٥١٦هـ)، جزء في تفسير قوله – تعالى–: (ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب) لابن تيمية، تقي الدين أبي

---

(١) أي: منتشرة متفشية من كل جانب قال ابن فارس: ".. يقال أشعى القوم الغارة إشعاء، إذا أشعلوها، وغارة شعواء: فاشية، قال ابن قيس الرقيات:

كيف نومي على الفراش ولما * تشمل الشام غارة شعواء**

انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٣/١٩٠.

(٢) وأصل الكتاب رسالة دكتوراه تقدم بها إلى قسم الشريعة الإسلامية في كلية دار العلوم ١٤٠٣هـ – ١٩٨٤م، وقد طبعتها مكتبة الملك فيصل الإسلامية.

العباس أحمد بن عبد الحليم، (٧٢٨هـ)، تفسير الثعلبي، أحمد بن محمد أبو إسحاق النيسابوري، (ت٤٢٧هـ)، وتفسير ابن الجوزي زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي، (ت٥٩٧هـ)، وتفسير الرازي (التفسير الكبير)، لمحمد بن عمر المشهور بفخر الدين الرازي، (ت ٦٠٦هـ)، المشهور بمفاتيح الغيب، وتفسير الزمخشري (الكشاف عن حقائق التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) لجار الله أبي القاسم محمود بن عمر الخوارزمي (ت ٥٣٨هـ) وتفسير الطبري، (ت ٣١٠ هـ)، وتفسير القرطبي، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت ٦٧١هـ)، وتفسير الماوردي المسمى النكت والعيون أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب، (ت ٤٥٠هـ)، تفسير الواحدي، علي بن أحمد بن محمد بن علي أبي الحسن (ت ٤٦٨هـ).

ثانيا: من أهم مصادره في علوم القرآن "البيان" لأبي عمرو الداني، عثمان بن سعيد (ت٤٤٤هـ)، و"التبيان في آداب حملة القرآن " لأبي زكريا النواوي، محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت٦٧٧هـ)، فضائل القرآن لأبي عبيد القاسم بن سلام، (ت٢٢٤هـ)، مصحف أبي بن كعب، (ت١٩هـ)، ومعاني القرآن للزجاج لأبي إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج (ت٣١١هـ)، والناسخ والمنسوخ لأبي عبيد القاسم بن سلام.

ثالثا: من أهم كتب السنة وعلوم الحديث وشروحه الكتب الستة مضافا إليها موطأ الإمام مالك، ومسند أحمد بن حنبل، الأحوذي في شرح الترمذي للإمام أبي بكر محمد بن العربي، المتوفى سنة ٥٤٣ هـ، واسم الكتاب (عارضة الأحوذي في شرح الترمذي)، الجامع لآداب الراوي والسامع: للخطيب البغدادي، أبي أحمد بن علي بن ثابت المعروف بالخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ)، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم، دلائل النبوة للبيهقي، سنن أبي بكر البيهقي، سنن الدارقطني (٣٧٥هـ)، وسنن سعيد

بن منصور الخراساني، (ت٢٢٧هـ)، وشرح البخاري للحافظ ابن كثير، وهو من الكتب المفقودة، شرح مسلم للنووي، وصحيح ابن خزيمة، لمحمد بن إسحاق النيسابوري، المتوفى سنة ٣١١ هـ.

ومنها كذلك المحدث الفاصل بين الراوي والواعي للرامهرمزي، الحافظ أبي محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي، (ت٢٦٠هـ)، والمراسيل لأبي داود، ومستدرك الحاكم للنيسابوري، أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن حمد بن نعيم الضبي النيسابوري الشهير بالحاكم وبابن البيع، (ت٤٠٤هـ)، ومسند أبي بكر البزار أحمد بن عمرو البصري البزار، (ت٢٩١ هـ)، وقيل:(ت ٢٠٤هـ)، ومسند أبي يعلى الموصلي (الحافظ أحمد بن علي بن المثنى الموصلي)، (ت ٣٠٧ هـ)، ومسند الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي السمرقندي (ت٢٥٥هـ)، ومشكل الحديث لأبي جعفر الطحاوي (ت ٣٢١هـ)، ومشكل الحديث لابن قتيبة، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري أبي محمد، (ت٢٧٦هـ)، ومصنف عبد الرزاق الصنعاني، والموضوعات لأبي الفرج بن الجوزي.

رابعا: من أهم مصادره في الفقه وأصوله

الأحكام الكبرى للحافظ ابن كثير، الإرشاد في أصول الفقه للإمام الجويني أبي المعالى عبد الملك بن عبد الله بن يوسف ت٤٧٨ هـ، الاستذكار لأبي عمر بن عبد البر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي الأندلسي، (٦٤٣هـ)، والأم للإمام الشافعي، شرح المهذب للنووي، الشرح الكبير للرافعي أبي القاسم عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القزويني الرافعي، (ت٦٢٣هـ، والمحلى لابن حزم، أبي محمد بن حزم بن علي الظاهري، (ت٤٥٦هـ)، ومصنف للإمام أبي عبد الله البخاري في مسألة القراءة خلف الإمام.

خامسا: من أهم مصادره في التاريخ والسير والتراجم

– الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير.، أسماء الصحابة للحافظ أبي نعيم الأصبهاني، البداية والنهاية لابن كثير، تاريخ الخطيب للبغدادي، وتاريخ ابن عساكر علي بن الحسن (ت ٥٧١ هـ)، التاريخ الكبير للإمام البخاري، والروض الأنف للسهيلي عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي (ت٥٨١ هـ)، والطبقات الكبرى لابن سعد أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع، ومعرفة الصحابة لابن منده (أبي عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد المعروف بابن منده)، المغازي لمحمد بن إسحاق بن يسار، صاحب السيرة، (ت ١٥٠هـ) .

سادسا: من أهم المصادر في علوم اللغة

– الجمل لابن القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، والزاهر لابن الأنباري، أبي بكر محمد بن القاسم بن محمد بن بشار (ت ٢٢٨ هـ)، الصحاح لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، (ت٣٩٣ هـ)، وقيل: (ت ٣٩٨هـ)، الغريب لأبي عبيد القاسم بن سلام وغيرها .

سابعا: مصادر في علوم مختلفة

– الأذكار للنسائي، والأذكار للنووي، والتذكرة للقرطبي، التوحيد للإمام محمد بن إسحاق بن خزيمة، الرد على الجهمية للإمام أحمد بن حنبل، والرد على الجهمية للدارمي، عثمان بن سعيد بن خالد التميمي الدارمي (ت٢٨٠ هـ)، صفة العرش لمحمد بن عثمان بن أبي شيبة، (ت ٢٩٧هـ)، القصد والأمم بمعرفة أصول أنساب العرب لابن عبد البر، والياسق لجنكيزخان (ت٦٢٤ هـ)، والكتاب عبارة عن أحكام اقتبست من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والإسلام وغير ذلك وكان دستور التتار.

هذه هي أهم المصادر التي ارتكز عليها ورجع إليها الحافظ ابن كثير – رحمه الله– في تفسيره، وقد تعمدت ذكر بعضها لنعرف الجهد العظيم الذي بذله الحافظ ابن كثير في إخراج مؤلفه، والذي انعكس على تفسيره ليتخذ المنزلة التالية بعد تفسير الطبري منزلة ومكانة وقياسا عند أهل الشأن لعدة عوامل نعرفها خاتمة البحث، ولعل المتفحص الذي يستقرئ التفاسير التي جاءت بعد ابن كثير يجد أن معظمها قد أخذت منه لا سيما التفسير الصحيحفجاء بالمكانة والأهمية بعد ابن جرير، فإن كان الفضل لابن جرير الطبري في حفظ أقوال السلف من المفسرين في التفسير فإن الفضل الثاني يرجع بعد الله إلى ابن كثير؛ في تحقيقها وتنقيحها وتمحيصها، فهو البحر الزاخر وكل من جاء بعده إنما يرتشف من معين بحره وهم في ذلك بين مقل ومكثر.

ولذلك نجد السيوطي وهو ممن أكثر من التأليف والتصنيف حتى قيل: إنه ما من علم إلا وله تصنيف فيه، يقول عن تفسير ابن كثير: "وله التفسير الذي لم يؤلَّف على نمطه مثله"[(١)]، وهذا لا يقال من باب المبالغة، كيف ذلك والناظر في هذا الكم الهائل من المراجع والمصادر يعلم سبب الملكة النقدية التي نشأت عند ابن كثير وسبب كثرة تصانيفة المتنوعة والمختلفة، فإذا عرفنا مصادره يحسن بنا الوقوف على طريقته في تفسيره خاصة أنني عندما تتبعت ابن كثير وجدته من جملة من تأثر بالطبري بل إنه قد فاقه في بعض الجوانب، كالدقة في تحري الإسناد الصحيح، وبساطة العبارة، والوضوح في الفكرة إذ هو ما يعنينا في دراستنا هذه [(٢)].

(١) طبقات الحفاظ ص٥٣٤، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، طبعة: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٠٣هـ.

(٢) ينظر: مباحث في علوم القرآن ص٢٩١، د.صبحي الصالح، طبعة: دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة والعشرون: ٢٠٠٠م.

المبحث الثالث
منهج ابن كثير في تفسيره

يجدر بنا لتصور المنهجية النقدية التي امتاز بها ابن كثير في تفسيره معرفة منهجه التفسيري أولا حتى يتسنى لنا إدراك سبب بروز الناحية التقدية وهذا لا يظهر بطبيعة الحال إلا ببيان منهج المؤلف في تأليفه ولذلك سأبين منهجه أولا من حيث الجملة والإجمال ومن ثم من حيث التفصيل.

أولا: منهجه في التفسير من حيث الجملة.

بالنظر إلى تفسير ابن كثير والتأمل فيه نجد أن لابن كثير طريقة ومنهجية مطردةً لا يحيد عنها في تفسيره إلا نزرا يسيرا، وهذه الطريقة يمكن وصفها من حيث العموم والجملة تارة، ومن حيث التفصيل والتدقيق تارة أخرى أما من حيث العموم فإننا نلاحظ أن ابن كثير غالبا ما يأتي على الآيات المراد تفسيرها فيذكر معناها من حيث الإجمال بجملة أو جملتين ثم هو يضرب لها أمثالا من كتاب الله ويلحقها بنظيرها من الآيات.

فيقول مثلا: (كما قال في الآية الأخرى كذا وكذا) أو (من أشبه آية بهذه الآية كذا وكذا) أو يقول: (قال في سورة القصص أو سورة سبحان كذا وكذا) ملحقا الآيات في المعنى الواحد بعضها ببعض وهذا ما أخذه هو على نفسه بطلبه تفسير القرآن بالقرآن في المقام الأول ولذلك يبدأ غالبا بتفسير الآية بما يماثلها من كتاب الله -تبارك وتعالى-، ثم ما صح عنده[1] من السنة في ذلك، ثم ما جاء عن الصحابة لا

(١) وقولي هنا (عنده): قيد لما قد يقع عنده ويحكيه على وجه صحته وليس الأمر كذلك أو يحكيه ولا يبين ضعفه كحديث: الحديث: "لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء" والذي رواه الترمذي في سننه (٢٣٢٠) من طريق عبد الحميد بن سليمان عن أبي حازم، عن سهل بن سعد ﷺ

سيما المفسرين منهم كعلي بن أبي طالب وابن عباس، ثم ما جاء عن كبار التابعين لا سيما المفسرين منهم كذلك ثم يتبع ما ذكره المفسرون ثم هو قد يوافقهم أو يخالفهم أو يوفق بين مقالاتهم.

ثانيا: منهجه في التفسير من حيث التفصيل.

نجد أن ابن كثير – رحمه الله– يمتاز عن غيره من المفسرين بأنه يفسر الآية بعبارة سهلة، وبأسلوب مختصر يوضح فيه المعنى المراد نائيا بالتفسير عن عبارات المفسرين التي يشوبها شيءٌ من الغموض أو اللهجة العلمية التي لا يفهمها إلا من مارس العلم وشيئا من اللغة، وسبب اتخاذ ابن كثير لهذه المنهجية إيمانه بأن القرآن الكريم كتاب هداية فعليه يجب إيصال معناه للناس دون تعقيدات يقول – – رحمه الله-- في مقدمة تفسيره: " فمن بلغه هذا القرآن من عرب وعجم، وأسود وأحمر، وإنس وجان، فهو نذير له؛ ولهذا قال – تعالى–: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [هود:١٧] فمن كفر بالقرآن ممن ذكرنا فالنار موعده، بنص الله – تعالى–، وكما قال – تعالى–: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥].

وقال رسول الله ﷺ: "بعثت إلى الأحمر والأسود" قال مجاهد: يعني: الإنس والجن، فهو صلوات الله وسلامه عليه رسول الله إلى جميع الثقلين: الإنس والجن مبلغا لهم عن الله ما أوحاه إليه من هذا الكتاب العزيز الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت:٤٢]

وقد أعلمهم فيه عن الله – تعالى– أنه ندبهم إلى تفهمه، فقال – تعالى–: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء:٨٢]،

به مرفوعا، وعبد الحميد بن سليمان هذا ضعيف، إلا أن وقوع مثل ذلك عند ابن كثير قليل جدا قياسا بغيره من المفسرين بل إن البون شاسع جدا ليس فيمن بعده وإنما عند من سبقه كذلك.

وقال – تعالى–: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]

وقال – تعالى–: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد:٢٤]، فالواجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله، وتفسير ذلك، وطلبه من مظانه، وتعلم ذلك وتعليمه "[(١)].

ولهذا نجده سهل العبارة يتحدث بلغة ولهجة يفهمها العامة قبل الخاصة، وهو في كل ذلك يفسر القرآن بالقرآن محاولًا ربط معانيه بعضها ببعض، وطريقته في التفسير هذه من أسمى طرق التفسير وأعلاها، أعني بذلك طلب معاني القرآن الكريم من القرآن نفسه.

يقول – رحمه الله–: فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب: إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر"[(٢)]، وهو ما ذكرته سابقًا من قوله مثلا: (كما قال في الآية الأخرى كذا وكذا) أو(من أشبه آية بهذه الآية كذا وكذا) أو يقول: (قال في سورة القصص أو سورة سبحان كذا وكذا)، وهذه الطريقة بالرغم من أنها أعلى طرق التفسير إلا أنه من أصعبها في نفس الوقت؛ ذلك أن إلحاق معاني الآيات بعضها ببعض لا يتطلب فقط حفظ آيات الذكر الحكيم وإنما يتطلب كذلك استحضارًا للآيات والمعاني التي سيقت في نفس موضوع الآي، بل إن كثيرا من الحفاظ من يحفظ حفظا مجردا لا يدرك معه معاني المحفوظ من التنزيل فلا يستطيع استحضار أو إدراك المعاني التي سيقت في ذات الموضوع لفظا ومعنًا.

(١) مقدمة تفسير ابن كثير ١/٦.

(٢) المصدر السابق ١/٧، وهي عين عبارة ابن تيمية في مقدمة أصول التفسير والتي يبدو أن ابن كثير أخذها عن شيخه ابن تيمية

ثم نجده يأخذ بتفسير القرآن بالسنة النبوية ويجعله في المنزلة الثانية بعد تفسير القرآن بالقرآن يقول في مقدمة تفسيره – رحمه الله–: "فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي – رحمه الله–: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن"(١)، وابن كثير في هذا لا يكتفي بمجرد التفسير بالأحاديث النبوية من السنة، بل هو يتحرى الصحة فيما يفسر به وهو ما يميز تفسيره عن التفاسير السابقة التي كانت تكتفي بمجرد سرد الحديث المراد الاستدلال به أو المراد كشف التفسير من خلاله دون تتبع صحته من عدمها، كالطبري مثلا، وهذا يدلنا على عظيم قدر تفسيره ورفيع منزلته ومن أمثلة ذلك:

ما جاء في تفسير أول سور البقرة أورد – رحمه الله– الأثر الذي يرويه كثير من المفسرين وعلى رأسهم ابن جرير الطبري – رحمه الله– وهو ما رواه محمد بن إسحاق بن يسار، صاحب المغازي، حدثني الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، عن جابر بن عبد الله بن رئاب، قال: مر أبو ياسر بن أخطب، في رجال من يهود، برسول الله ﷺ وهو يتلو فاتحة سورة البقرة: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: ١، ٢]، فأتى أخاه حيي بن أخطب في رجال من اليهود، فقال: تعلمون واللهلقد سمعت محمدًا يتلو فيما أنزل الله عليه: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ فقال: أنت سمعته؟ قال: نعم. قال: فمشى حيي بن أخطب في أولئك النفر من اليهود إلى رسول الله ﷺ: فقالوا: يا محمد، ألم يذكر أنك تتلو فيما أنزل الله عليك: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾؟ فقال رسول الله ﷺ: "بلى"، فقالوا:

(١) مقدمة تفسيره ١/٧.

جاءك بهذا جبريل من عند الله؟ فقال: "نعم" قالوا: لقد بعث الله قبلك أنبياء ما نعلمه بين لنبي منهم ما مدة ملكه وما أجل أمته غيرك، فقام حيي بن أخطب، وأقبل على من كان معه، فقال لهم: الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، فهذه إحدى وسبعون سنة، أفتدخلون في دين نبي، إنما مدة ملكه وأجل أمته إحدى وسبعون سنة؟ ثم أقبل على رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد هل مع هذا غيره؟ فقال: "نعم"، قال: ما ذاك؟ قال: "المص"، قال: هذا أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والصاد سبعون، فهذه إحدى وثلاثون ومائة سنة هل مع هذا يا محمد غيره ؟ قال: "نعم" قال: ما ذاك ؟ قال: "الر".

قال: هذا أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والراء مائتان، فهذه إحدى وثلاثون ومائتا سنة، فهل مع هذا يا محمد غيره؟ قال: "نعم"، قال: ماذا؟ قال: "المر" قال: فهذه أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والراء مائتان، فهذه إحدى وسبعون ومائتان، ثم قال: لقد لبس علينا أمرك يا محمد، حتى ما ندري أقليلا أعطيت أم كثيرا. ثم قال: قوموا عنه، ثم قال أبو ياسر لأخيه حيي بن أخطب، ولمن معه من الأحبار: ما يدريكم؟ لعله قد جمع هذا لمحمد كله إحدى وسبعون وإحدى وثلاثون ومائة وإحدى وثلاثون ومائتان وإحدى وسبعون ومائتان، فذلك سبعمائة وأربع سنين، فقالوا: لقد تشابه علينا أمره، فيزعمون أن هؤلاء الآيات نزلت فيهم: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ [آل عمران:٧].

وهذا الأثر رواه كل من البخاري – رحمه الله– في تاريخه[١] والطبري في تفسيره[٢] والماوردي في تفسيره[٣] والفخر الرازي في تفسيره[٤] وغيرهم من طريق محمد بن إسحاق بن يسار المشهور صاحب السير والمغازي، وهو صدوق إلا أنه قد يأتي بالروايات الغريبة، ومن تتبع السيرة وجد بعض مروياته كذلك فهو قد يأتي بمرويات لا يوافق عليها إلا أن أغلب الخلل فيها يكون عمن أخذ عنه لا منه كما هو الحال في هذه الرواية، إلا أن بعض الروايات قد يستأنس بها متى جاءت من جهة الاعتضاد أو في سياق ما يمكن قبوله من المرويات لا سيما في السيرة النبوية وبعض تفاصيلها الدقيقة مما لا يخالف نقلا ولا عقلا.

ولهذا يقول أبو الحسن الميموني: حدثنا أبو عبد الله– يعني: أحمد بن حنبل– بحديث استحسنه، عن محمد بن إسحاق، فقلت له: يا أبا عبد الله ما أحسن هذه القصص التي يجيء بها ابن إسحاق، فتبسم إلى متعجبا، ويقول الدارمي عنه: "يروي عن مشايخ قد رآهم ويروي عن مشايخ عن أولئك، وربما روى عن أقوام رووا عن

(١) التاريخ الكبير ٢٠٨/٢، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري صاحب الصحيح (ت ٢٥٦هـ)، بتحقيق: محمد عبدالمعيد خان، طبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد – الدكن– الهند.

(٢) تفسير الطبري ٢١٥/١.

(٣) النكت والعيون٦٤/١، لأبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (ت٤٥٠هـ)، بتحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، طبعة: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان.

(٤) مفاتيح الغيب ٢٥٣/٢.

مشايخ يروون عن مشايخه يدل ما وصفت من توقيه على صدقه، مات ببغداد سنة خمسين ومائة وكان من أحسن الناس سياقا للاخبار وأحفظهم لمتونها"[١].

وشاهدنا هنا هو ضعف هذا الأثر الذي يورده المفسرون، فنجد ابن كثير – رحمه الله– لا يكتفي بهذا النقل في التفسير أو يوظفه في التفسير، بل يورده لينقده؛ فقد قال – رحمه الله– بعد أن ساق الأثر بتمامه: "فهذا مداره على محمد بن السائب الكلبي، وهو ممن لا يحتج بما انفرد به، ثم كان مقتضى هذا المسلك إن كان صحيحا أن يحسب ما لكل حرف من الحروف الأربعة عشر التي ذكرناها، وذلك يبلغ منه جملة كثيرة، وإن حسبت مع التكرار فأتم وأعظم والله أعلم"[٢]، ولذلك فهو لا يروي كل ما وقعت عليه يده من آثار ويستدل بها بل يفحص ذلك ويمحصه، وينتقي من الروايات أصحها وأحسنها موافقة لتفسير القرآن الكريم.

وأما في تفسير القرآن بأقوال الصحابة فنجد ابن كثير عادة ما يورد النقل في التفسير عمن اشتهر بالتفسير من الصحابة كالخلفاء الأربعة وعبدالله بن مسعود وعبدالله بن عباس، وعن مشاهير التابعين في التفسير كمجاهد بن جبر، وسعيد بن جبير، وعكرمة، ومحمد بن كعب القرظي، وعلقمة، ومكحول الشامي، وابن أبي الهذيل، والزهري، والضحاك بن مزاحم، والحسن البصري، وقتادة بن دعامة السدوسي، والسدي الكبير إسماعيل بن عبد الرحمن، وأبو العالية، وعبدالرحمن بن زيد الأسلمي، ومقاتل بن سليمان غيرهم.

---

(١) يُنظر: مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار، لمحمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم الدارمي، البُستي (ت ٣٥٤هـ)، بتحقيق: مرزوق علي ابراهيم، طبعة: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع – المنصورة، الطبعة الأولى: ١٤١١ هـ - ١٩٩١م.

(٢) تفسير الطبري ١/١٦٢.

وفي نقله عن الصحابة والتابعين نجده دائما ما يحكي اختلاف التفسير إما لاختلاف الصحابة في التفسير وهو قليل جدا، وإما لاختلاف التابعين مرة في التفسير نفسه ومرة في النقل عن الصحابي فتجد تلاميذ ابن عباس يذكرون في الآية الواحدة تفسيرين أو قولين، كلاهما عن ابن عباس، وسبب ذلك- والله أعلم-: أن ذلك راجع إما لصحة أو ضعف ما ينقل عن ابن عباس أو أن تلاميذ ابن عباس قد أخذوا عنه على فترات متباعدة فيكون ابن عباس رضي الله عنه قال بقول ثم تبين له خلافه أو وجد في التفسير أحسن منه وهذا يتصور في المعاني المتضادة وأما في التفاسير المتوافقة والمختلفة اختلافا تنوعيا أو لنقل صوريا فإن الاختلاف يكون بتصرف التابعي أو من الصحابي نفسه كأن يقول في معنى الصراط المستقيم تارة الإسلام وتارة القرآن، ولا فرق في القولين عند التدقيق فالإسلام ما جاء به القرآن، والقرآن دليل الإسلام قال ابن كثير:"ثم اختلفت عبارات المفسرين من السلف والخلف في تفسير الصراط، وإن كان يرجع حاصلها إلى شيء واحد، وهو المتابعة لله وللرسول"(١).

وخلاصة الأقوال في الصراط المستقيم:

- قال علي بن أبي طالب: هو القرآن.
- وجاء عن عبدالله بن مسعود وجابر بن عبدالله والنواس بن سمعان رضي الله عنهم: أنه الإسلام.
- وقال ابن عباس: هو دين الله الذي لا عوجاج فيه.
- وقال مجاهد بن جبر: هو الحق.
- وقال أبوالعالية: هو النبي ﷺ .

(١) تفسير ابن كثير ١/١٣٧.

وهذه الأقوال كلها صحيحة ولا تتعارض البتة، بل يأخذ بعضها بعناق بعض وهي من باب اختلاف التنوع في التفسير؛ ولذلك قال ابن كثير بعد حكاية هذه الأقوال: "وكل هذه الأقوال صحيحة، وهي متلازمة، فإن من اتبع النبي ﷺ واقتدى باللذين من بعده أبي بكر وعمر، فقد اتبع الحق، ومن اتبع الحق فقد اتبع الإسلام، ومن اتبع الإسلام فقد اتبع القرآن، وهو كتاب الله وحبله المتين، وصراطه المستقيم، فكلها صحيحة يصدق بعضها بعضا، ولله الحمد"(١).

وأما عن طريقة ابن كثير في السرد فهو عادة ما يسرد الأقوال إذا تعددت لا سيما اذا اختلفت بقوله: "ذكر ما جاء من الأخبار في ذلك"، ثم يسوق جملة ما عنده من رواية في هذا القول وهو غالبا ما يتعقب أدلة أصحاب هذه الأقوال بالتضعيف تارة وبالموافقة تارة وبالترجيح تارة أخرى مستخدمًا في ذلك حسه النقدي والذي سنأتي عليه، وبعد ما سبق ذكره يأتي دور الرأي واستخدامه في التفسير، فابن كثير كما أنه أثري من الطراز الأول فهو صاحب آراء واختيارات وتوجيهات، سنأتي على ذكرها عند الحديث عن منهجه النقدي.

والمراد هنا بيان أن المنهج الأثري الذي تميز به ابن كثير لم يمنعه من إقحام الآراء الفقهية في التفسير؛ لذلك نجده يأتي على ما في الآية من التفسير والأقوال ويعقب على ذلك كله بغض النظر عن القائل، وهذا يدلنا على إنصافه وتحريه الصواب –رحمه الله–، ولذلك نجده يعرض الأقوال والمذاهب الفقهية مع أدلتها ويذكر الشواهد من اللغة والشعر وغيرهما استشهادا أو اعتضادا، ويذكر آراء المفسرين وينقل عنهم، ولا يجد حرجا في نقد كلامهم، ولقد اهتم بإبراز الجانب الإعجازي في القرآن وقد مر معنا شيءٌ من كلامه في رد الإعجاز العددي والرقمي والرمزي للقرآن الكريم إلا أن ذلك لا

(١) المصدر السابق ١/١٣٩.

يدل على إنكاره؛ لوجوه الإعجاز يقول – رحمه الله–:"ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنونا ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى"(١).

المبحث الرابع
منهج ابن كثير في النقد

لقد امتاز ابن كثير – رحمه الله– في تفسيره دون غيره بالحس النقدي العالي وهذا يمكن لأي أحد ملاحظته بمجرد تصفح تفسيره، فضلًا عن قراءته، وهو من أبرز ملامح تفسيره وكيف لا يكون الأمر كذلك وهو من مدرسة ابن تيمية والمزي والذهبي، وهؤلاء من أساتذة النقد العقدي والحديثي والفقهي عبر التاريخ الإسلامي المشرق ومن تأمل مصنفاتهم وجد ذلك عيانًا، ولو تتبعنا ابن كثير في تفسيره وفي ملاحقته الدؤوب للإسرائيليات ووقوفه تجاهها وتجاه الموضوعات والأحاديث الواهية موقف المعادي لكان كافيًا، فقلما مر على أحد تلكم الترسبات الروائية إلا ووجدناه يبين غلطها إما من جهة النقل ببيان ضعفها أومخالفتها للصحيح المعروف المشهور وهو يخضع كل ذلك لقوة علمه الحديثي الذي بلغ منه سرد تراجم بعض الرواة وكلام النقاد عنهم لبيان ضعفهم ووهنهم، أو من جهة العقل والمنطق السليم المتوافق مع مقاصد الشريعة العظمى.

وهذا لا أقوله من بنيات أفكاري بل سبقني به ابن كثير نفسه إذ يقول في نقده للرواية التي جاءت في معنى قاف وأنه جبل محيط بجميع الأرض:" وكأن هذا –والله أعلم–من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس، لما رأى من جواز الرواية عنهم فيمالا يصدق ولا يكذب، وعندي أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم، يلبسون به على الناس أمر دينهم، كما افتري في هذه الأمة –مع

(١) المصدر السابق ١/١٩٩.

جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها-أحاديث عن النبي ﷺ وما بالعهد من قدم، فكيف بأمة بني إسرائيل مع طول المدى، وقلة الحفاظ النقاد فيهم، وشربهم الخمور، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه، وتبديل كتب الله وآياته! وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله: "وحدثوا عن بني إسرائيل، ولا حرج" فيما قد يجوزه العقل، فأما فيما تحيله العقول ويحكم عليه بالبطلان، ويغلب على الظنون كذبه، فليس من هذا القبيل والله أعلم"[(١)].

وأما ما يذكره هو من إسرائيليات فإنما يذكره – رحمه الله– من جهة الاستشهاد فقط لا مستدلا به أو عاضدا به قولا يقول – رحمه الله– في مقدمة تفسيره: "ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد، لا للاعتضاد "[(٢)] ، وسنقف على موقفه منها بعد قليل .

ولقد تعدى ابن كثير مرحلة النقد المجرد للتفسير بمراحل ليشمل الآراء الاعتقادية ومخرجاتها والتفسيرية وعلومها والفقهية وذيولها والأصولية وفروعها إلى آخر ذلك من العلوم لا سيما أصحاب الأقوال القوية والاختيارات المعروفة، فابن كثير لا ينظر إلى هوية القائل كما سبق أن ذكرت بقدر نظرته إلى القول، وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول بأنه يهتم بالكيف وليس بالكم، فإذا لم يجد لقول ما مساغًا أو دليلًا أو مقتضى نجده يرده بغض النظر عن قائله، وسأقف على بعض الأمثلة التي توضح ذلك وتبين مدى استقلاليته وقوة شخصيته في ذلك، مع التنويه على أن هذه الاستقلالية ليست حرة

(١) تفسير ابن كثير ٣٩٤/٧.

(٢) مقدمة تفسير ابن كثير ٩/١.

كما قد يتصور البعض بل هي مرتبطة إما بالدليل الشرعي أو اللغوي أو موافقة للاستنباط والقياس العقلي السليم الخالي من الإجحاف(١) والتهور(٢).

وهذه التتبعات تناولت ما ينقل عن الصحابة والتابعين وبقية المفسرين في التفسير خاصة وعلوم القرآن والقصص القرآنية والاستشهادات التابعة لها والمتعلقة بها، وتشمل ما ينقل عن المفسرين بشكل عام في اختياراتهم الفقهية والاعتقادية والحديثية، وهذه النقود تناول فيها ما ينقل عن ابن عباس إلى من هو دونه، دون استثناء منه- رحمه الله- ليس بينه وبين أحد منهم مداهنة ولا مقاربة وأورد عدة أمثلة تبين ذلك جليا واضحًا وهي على ثلاث مراتب:

الأولى: نقده لما يُروى عن الصحابة في التفسير، وضابطه عنده.

الثانية: نقده لما يُروى عن التابعين في التفسير.

الثالثة: نقده للمفسرين.

المرتبة الأولى: دعوى نقده لما يروى عن الصحابة في التفسير وحقيقة وقوعه

المثال الأول: في قوله - تعالى-: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنعام:٢] قال- رحمه الله-: "وقوله:

(١) والمقصود هنا الجور والظلم والهضم، قال ابن فارس: "(جحف) أصل واحد، قياسه الذهاب بالشيء مستوعبا، يقال: سيل جحاف إذا جرف كل شيء وذهب به..ويقال أجحف بالشيء إذا ذهب به..وأصل آخر وهو الميل والعدول..وتجاحف القوم في القتال: مال بعضهم على بعض بالسيوف والعصي، وجاحف الذنب إذا مال إليه، وفلان يجحف لفلان: إذا مال معه على غيره" (مقاييس اللغة ١/٤٢٧) .

(٢) وهو من الإسراع في إسقاط الشيء والدفع في تساقطه، قال ابن فارس: "(هور) أصل يدل على تساقط شيء، منه تهور البناء: انهدم، وتهور الليل: انكسر ظلامه، كأنه تهدم ومر، وتهور الشتاء: ذهب أشده" (مقاييس اللغة ٦/١٨) .

﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى عِندَهُۥ﴾ قال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗا﴾ يعني: الموت ﴿وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى عِندَهُۥ﴾ يعني: الآخرة، وهكذا روي عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والضحاك، وزيد بن أسلم، وعطية، والسدي، ومقاتل بن حيان، وغيرهم.

وقول الحسن في رواية عنه: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗا﴾ قال: ما بين أن يخلق إلى أن يموت ﴿وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى عِندَهُۥ﴾ ما بين أن يموت إلى أن يبعث هو يرجع إلى ما تقدم، وهو تقدير الأجل الخاص، وهو عمر كل إنسان، وتقدير الأجل العام، وهو عمر الدنيا بكمالها ثم انتهائها وانقضائها وزوالها، وانتقالها والمصير إلى الدار الآخرة.

وعن ابن عباس ومجاهد: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗا﴾ يعني: مدة الدنيا ﴿وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى عِندَهُۥ﴾ يعني: عمر الإنسان إلى حين موته، وكأنه مأخوذ من قوله – تعالى– بعد هذا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٦٠﴾ الآية [الأنعام:٦٠]، وقال عطية، عن ابن عباس ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗا﴾ يعني: النوم، يقبض فيه الروح، ثم يرجع إلى صاحبه عند اليقظة ﴿وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى عِندَهُۥ﴾ يعني: أجل موت الإنسان"(١).

قال ابن كثير بعد أن نقل هذا القول الأخير متعقبا له وناقدا: "وهذا قول غريب"، وسبب استغراب ابن كثير لهذا القول كونه يخالف ما نقل عن ابن عباس في خلاف هذا القول، فقد نقل عنه وعن سادات المفسرين الذين سرد أسماءهم بأن الأجل الأول هو الموت والثاني هو أجل الآخرة وانقضاء الدنيا، إلا أن هذه الرواية عن ابن عباس تخالف ما نقل عنه وعن تلاميذه وأئمة التابعين من المفسرين، ولقد اكتفى ابن كثير بقوله: "قول غريب" لمخالفته ما رواه الثقات وسبب نقلي لهذا التعقيب والنقد تحديدًا

(١) تفسير ابن كثير ٣/٢٣٩.

أنني وجدت في مرحلة جمعي للمراجع كتابًا بعنوان: "**تعقيبات الحافظ ابن كثير على المفسرين**" يقع في قرابة ٢٠٠ صفحة، طبعته دار ابن الجوزي في القاهرة سنة ٢٠١١م، ومؤلفه هو هاني الحاج وقد عنون في فهارس كتابه عدة عناوين من ضمنها (التعقيب على ابن عباس) في مواضع: صفحة ٧١، ٨٢، ١٢٨، ١٧٧ و(التعقيب على علي بن أبي طالب) صفحة ١٠٢.

وفي الحقيقة لا أدري هل هذا العنوان منه أو من دار الطباعة والنشر التي قد تفهرس مثل هذه الكتب بحسب ما وفق لها؟! وعلى كل حال فإنني قد تتبعت المواضع التي يشير إليها المؤلف، وذكر أن ابن كثير تعقب الصحابة فلم أجد كلامه موافقا للحقيقة ذلك أن ابن كثير إنما ينتقد الرواية التي تروى عن الصحابي لا تفسير الصحابي نفسه كما ادعاه صاحب الكتاب، فهذا المثال الذي بين أيدينا إنما يبين استغراب ابن كثير من المروي عن ابن عباس لا من ابن عباس نفسه، يدلنا على ذلك عدة أمور:

١. منها أنه صدر الكلام أولا بما صح نقله عنه وقال به كبار المفسرين.

٢. منها كذلك أن من تتبع تفسير ابن كثير يجد أن من عادته أن يورد بعض الأقوال الضعيفة لا ليستدل بها، وإنما ليبين عوارها، وهذا المنهج يذكرنا بمنهج الإمام مسلم – رحمه الله– في صحيحه فإنه يورد ما صح عنده في الباب أولا ثم يورد بعض الروايات التي فيها شيء من الضعف في آخر الباب لبيان ضعفها وشذوذها عما رواه الثقات من الحفاظ وهذا عُرف بالاستقراء لا بالإقراء لأنه لم يفصح عن هذا –رحمه الله–.

٣. يدلنا على أن المقصود بالنقد الرواية المروية عن ابن عباس لا تفسير ابن عباس نفسه أن العوفي الذي يروي هذه الرواية معروف بل مشهور بالضعف في روايته عن

ابن عباس بل عن غير ابن عباس كذلك فقد ذكره العقيلي في الضعفاء[١]، وذكر تضعيفه عن الإمام أحمد بن حنبل فيما يرويه عبد الله بن الإمام أحمد عن أبيه وقوله: سمعت أبي ذكر عطية العوفي فقال: هو ضعيف الحديث، بلغني أن عطية كان يأتي الكلبي[٢] فيأخذ عنه التفسير، وقال ابن ابي حاتم في علله: " سألت أبي عن عطية العوفي[٣] فقال: ضعيف الحديث يكتب حديثه "[٤]، وهذا كما هو معلوم لا يخفى على ابن كثير صاحب المدرسة الحديثية والمطلع على الرجال وتوثيقاتهم، فعليه نقول: إنما قصد ابن كثير نقد ما روي عن ابن عباس لا نقد ما قاله ابن عباس نفسه وبينهما كما بين السماء والأرض؛ إذ إن ما يقوله الصحابة في التفسير ليس لأحد ممن بعدهم رده لا لعصمتهم وإنما لعدة اعتبارات منها:

- معاصرتهم التنزيل.
- شهودهم التأويل.

---

(١) الضعفاء الكبير ٣٥٩/٣، لأبي جعفر محمد بن عمرو بن موسى بن حماد العقيلي المكي (ت ٣٢٢هـ)، بتحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، طبعة: دار المكتبة العلمية – بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م.

(٢) وهو معروف بالكذب والوضع قال الذهبي: "محمد بن السائب الكلبي كذبه زائدة وابن معين وجماعة "اهـ(ينظر: ديوان الضعفاء والمتروكين ص٣٥٢، لـ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت ٧٤٨هـ) بتحقيق: حماد بن محمد الأنصاري، طبعة: مكتبة النهضة الحديثة – مكة، الطبعة الثانية: ١٣٨٧ هـ – ١٩٦٧ م) .

(٣) يُنظر: الكامل في ضعفاء الرجال ٨٤/٧، لأبي أحمد بن عدي الجرجاني (ت ٣٦٥هـ)، بتحقيق: مجموعة من المحققين، طبعة: الكتب العلمية – بيروت–لبنان، الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م.

(٤) الجرح والتعديل ٣٨٣/٦، لأبي محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (ت٣٢٧هـ)، طبعة: مجلس دائرة المعارف العثمانية – بحيدر آباد الدكن – الهند، ونشرتها: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الأولى: ١٢٧١هـ- ١٩٥٢م.

- صفاء ونقاء لغتهم
- خلو عصرهم من البدع والمحدثات.
- لاحتمال سماعهم التفسير ذاته من النبي ﷺ .

ويستثنى مما سبق ذكره متى اختلف صحابيان أو أكثر في الآية فإنه يعلم حينئذ عدم سماعهم هذا التفسير من النبي ﷺ وإن كان هذا الأمر قليلًا جدا ونزرا يسيرا، فيجوز لمن بعدهم الاختلاف على ما اختلفوا عليه لا أن يختلفوا على غيره.

٤. أن رد قول الصحابي أو نقده منهجية مبتدعة على خلاف ما قرره المحققون في التفسير، بل إن ابن كثير خالف هذه النظرية وبيّن ذلك في مقدمة تفسيره؛ فقد ذكر صراحة وبين أنه يعول على تفاسير الصحابة ما لم يجد ما يفسر به كلام الله – تبارك وتعالى– من القرآن أو السنة فقال – رحمه الله–: "وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة؛ فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح، لاسيما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، والأئمة المهتدين المهديين، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم أجمعين "[(١)].

فهذا كلامه بنصه فكيف يقال بأنه يتعقب الصحابة أو أنه يرد عليهم أو ينتقدهم.

المثال الثاني:

في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ [هود: ٤٠] قال ابن كثير: "قوله: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ فعن ابن عباس: التنور: وجه الأرض، أي: صارت الأرض عيونا تفور، حتى فار الماء

(١) مقدمة تفسير ابن كثير ٨/١.

من التنانير التي هي مكان النار، صارت تفور ماء، وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف، وعن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه-[١]: التنور: فلق الصبح، وتنوير الفجر، وهو ضياؤه وإشراقه"[٢]، ثم قال معقبا وناقدا: " والأول أظهر، وقال مجاهد والشعبي: كان هذا التنور بالكوفة، وعن ابن عباس: عين بالهند، وعن قتادة: عين بالجزيرة، يقال لها: عين الوردة، وهذه أقوال غريبة".

فهذا عند التحقيق لا نجده مما يروى بسند صحيح عن علي بن أبي طالب، بل لا نجد في ذلك إلا ما رواه ضعيف كسابقه أو ما فيه مجهول كحال هذ السند فإن الذي يرويه عن علي هو أبو جحيفة السوائي وهو من صغار الصحابة إلا أن الذي يرويه عن أبي جحيفة هو مولاه واسمه العباس مولى أبي جحيفة وهو من الثالثة لا توجد له ترجمة معروفة وهو غير زياد بن زيد، السوائي، الأعسم -بمهملتين- الكوفي، ويقال له: مولى أبي جحيفة، من الخامسة وهو مجهول[٣]، وحتى لو كان الراوي هو زياد نفسه إلا أن الراوية تظل ضعيفة وفي حيز الجهالة إلا أنه ينتقل من جهالة العين إلى جهالة الحال.

والحقيقة: أن العباس مولى أبي جحيفة هذا مجهولة عينه فهو لا يعرف البتة وليست له أي ترجمة في كتب السير والتاريخ والتراجم بعد أن أعياني البحث عنه، وفي ظني أن الذي يجعل ابن كثير محتاطًا في العبارة هو نقل مثل هذه الأقوال عن الصحابة والظن فيه أنه يفند رجال السند إذا روي مثل هذا كما هو معهود من طريقته، إلا أن الأمر كما هو ملاحظ أنه يقول ذلك تقديرا لما ينقل عن الصحابة- رضي الله عنهم-، فلا

(١) ينظر تفسير الطبري ١٥/٣٢٠.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٣٢٠.

(٣) المعجم الصغير لرواة الإمام ابن جرير الطبري ١/ ١٧٧ لأكرم بن محمد زيادة الفالوجي الأثري،ط الدار الأثرية، الأردن.

أدري كيف يجعل ذلك من باب نقد اقوال الصحابة أنفسهم، فتأمل هذا الفرق الدقيق يتبين لك موضع الخلل.

المرتبة الثاني: نقده لما يروى عن التابعين في التفسير

المثال الأول: في قوله – تعالى–: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ [المائدة:٣].

"قال مجاهد في قوله: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ قال: هي سهام العرب، وكعاب فارس والروم، كانوا يتقامرون بها، ثم تعقب ما أورده عن مجاهد فقال: "وهذا الذي ذكر عن مجاهد في الأزلام أنها موضوعة للقمار، فيه نظر، اللهم إلا أن يقال: إنهم كانوا يستعملونها في الاستخارة تارة، وفي القمار أخرى، والله أعلم، فإن الله – سبحانه وتعالى– قد فرق بين هذه وبين القمار وهو الميسر، فقال في آخر السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ...﴾ [الآيتان:٩٠،٩٠]، وهكذا قال هاهنا: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ أي: تعاطيه فسق وغي وضلال وجهالة وشرك"[(١)].

كما أن ابن كثير يقدم أقوال الصحابة ويقدسها، فكذلك الحال مع ما ذهب إليه التابعون إلا أن الأمر عند التدقيق يختلف فإنه قد يجد الحرية في الأخذ والرد، وهذه المساحة ليست من باب مقارعة الصدر الأول من هذا الأمة كما قد يتوهمه البعض لكن هو من باب الاجتهاد فما جاز للتابعي طرقه اجتهادا مع عدم الدليل وخالفه فيه غيره جاز لمن بعده بشروط معينة يراها – رحمه الله–.

قال في مقدمة تفسيره: "قال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين في الفروع ليست حجة؟ فكيف تكون حجة في التفسير؟ يعني: أنها لا تكون حجة على غيرهم

(١) تفسير ابن كثير ٢٥/٣.

ممن خالفهم، وهذا صحيح، أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون بعضهم حجة على بعض، ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك"[١].

ولذلك نجده يتعقب كثيرًا من التابعين في اختياراتهم ما دام الأمر خلافا بينهم، وهنا الأمر كذلك ففي تأويله للأزلام لم يأخذ بما قاله مجاهد وهو أصح من يروي في التفسير من حيث الجملة لا سيما عن ابن عباس رضي الله عنهما وذلك؛ لأن غيره يخالفه فيما ذهب إليه وهم أغلب التابعين كسعيد بن جبير والحسن البصري وقتادة بن دعامة والضحاك وعبدالرحمن بن زيد الأسلمي وعبدالله بن كثير المقرئ، بل وفي رواية عن مجاهد أخرى أنها خاصة في الاستخارة وأن العرب كانت تستقسم بالأزلام أو تضرب القداح للإقبال أو الإدبار في شؤونهم، وهذا هو المروي عن الصحابة رضي الله عنهم كما حكاه الطبري في تفسيره[٢].

ومن جميل ما انتقد به قول مجاهد كون الآية ذكرت الميسر وهو عينه القمار[٣]، وهذا تكرار مخل يكرم عنه القرآن وبلاغته، فلما كان الأمر كذلك وجب حمل المعنى على غيره خاصة أن غيره هو من قال به عامة المفسرين، ولذلك استبعد ابن كثير ما رواه مجاهد من أن ذلك في التقامر، ولعل مجاهد قصد من التقامر المعنى اللغوي منها أي التخرص بالقدح كما يتخرص أصحاب القمار عند مقامرتهم وممارستهم الميسر، فكذلك يفعل أصحاب الأزلام إذا أرادوا أمرا ما، وعلى هذا لا يكون لما انتقده ابن

(١) مقدمة تفسير ابن كثير ١/١٠.

(٢) تفسير الطبري ٩/ ٥١٤.

(٣) ينظر: لسان العرب ٦/١٥٦، مادة: يعر.

كثير وجه ويكون مقصد مجاهد من قوله التقامر أي يقرعون بأزلامهم طلبا لفعل أمورهم بجنس ما يقرعونه بينهم ويتداولونه في الميسر والله أعلم[1].

والأمثلة كثيرة في تعقبه للتابعين وأئمة التفسير لكن الأمر كما بينته، فهو على وجه الترجيح بين أقوالهم لا برد كل ما قالوه واختراع قول جديد بعيد عما قالوه وسطروه وزبروه، وانظر ما انتقد فيه القاسم بن سلام، والسدي، وقتادة، والضحاك والحسن وابن زيد وغيرهم كما في تفسيره في المواضع التالية: (١٠٧/٢)، (٣٦٠/٢)، (٩/٤)، (٥٩/٤)، (٣٦٣/٤)، (٣٧٦/٤)، (٣٧٧/٤)، (٤٢٩/٤) (٢٦٧/٨)، وغيرها من المواطن التي يمكن الوقوف عليها وتأملها، ولكي لا أطيل يطول بي المقام فمقصودي هنا بيان أمرين:

الأول: كونه ينتقد تفاسير التابعين متى اختلفوا.

الثاني: كون هذه الانتقادات مستندة إلى أدلة إما من كلام من فوقهم من الصحابة أوممن يساويهم من أقرانهم وبالله التوفيق.

المرتبة الثالث: نقده لأصحاب التفاسير المختلفة – نقده لتفسير الطبري نموذجًا

لم يقف ابن كثير في نقده لما يظن أنه قاصر على ما نقل عن الصحابة أو التابعين وأخذه موقف المرجح فقط وإنما من تتبع تفسيره سيجده في كثير من الأحيان يستدل ويجتهد ويخالف أئمة التفسير، وهذا ما ذكرته عنه سابقًا من أنه لا ينظر إلى ذات القائل، بل إنه يرتفع بالنقد طلبا للحق إلى عين المقول، وهذا ما جعله يبرز دون غيره من المفسرين ممن قبلهم ممن غلبت عليهم تعصابتهم المذهبية أو العقدية أو الفكرية

(١) قال ابن منظور في اللسان: " والقدح السهم، واحد القداح التي كانوا يقامرون بها. "أهـ (٢١٣/٧) .

التي تحد بشكل أو بآخر من إنصافهم، ومن تلكم الانتقادات ما تتبع به ابن كثير – رحمه الله– شيخ المفسرين ابن جرير الطبري في كثير من المواضع على الرغم من شبه التوافق مع الطبري – رحمه الله– في أصوله العلمية في التفسير؛ فكلاهما ينطلق من منطلق التفسير بالمأثور فيقدمان الكتاب والسنة وما جاء عن الصحابة وأئمة المفسرين من السلف على غيرهم، ولهذا قد يظن من يعرف منهج الشيخين من أنهما يتوافقان ولا يختلفان بالكلية، وليس الأمر كذلك وسبب ذلك عدة أمور:

أ– منها أن الطبري – رحمه الله– يسير في تفسيره على منهجية الرواية دون التحقيق أو بمعنى آخر يروي كل ما وقع عليه من آثار في التفسير عن الصحابة أمثال علي بن أبي طالب وعبدالله بن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم جميعا دون النظر إلى صحة هذا النقل من عدمه، وهي عادة غالب المحدثين والروائيين والمؤرخين في عهده سيرًا على قاعدة(١): "من أسند فقد أحال" أو بعبارة أخرى: "إذا كتبت فقمش

(١) وهذه العادة لم يكن لها الأثر البالغ كما هو الحال مع العصور المتقدمة، بل إنها تعد من حسنات المتقدمين وهي نقل تلكم الروايات الضعيفة كما هي بأسانيدها حتى يتمكن من بعدهم من معرفة مخرج تلكم الروايات الضعيفة ومن أين يأتي خللها ولو اقتصر الأولون على نقل الصحيح فقط كما فعل أصحاب الصحيح لخفي علينا كثير من الأسانيد التي لربما ما تعرفنا على ضعف رواتها ورجالها دون هذه الآثار والأحاديث، ولذلك نُقل عن يحيى بن معين قوله: لو لم نكتب الحديث من ثلاثين وجها مَا عقلناه، وهذا الأمر يغلط ويخلط فيه كثير من المتأخرين ظنا منه أن الأولين لو اقتصروا علي الصحيح لأراحوا وارتاحوا، وليس الأمر كما يتصورون، بل لضاعت معظم السنن التي لربما جبر ضعفها وجود راو لها آخر من طريق آخر يثبت أصلها ويؤكد صحتها، بمعنى آخر لما وجد ما يعرف بمصطلح الصحيح لغيره أو الحسن لغيره فتأمل كم كان سيضيع من السنة النبوية لو سار الأولون على هذا السبيل، وأما من جاء بعدهم فإن ضرر نقلهم تلكم الروايات أصبحت نوعا ما من الوبال والجناية على الشريعة بشكل عام وعلى التفسير بشكل خاص؛ حيث أثر ذلك كما مر معنا على علم الفقه والأصول والاعتقاد وغيرها من علوم الشريعة، التي أصبح كثير من أربابها يستدل بتلكم الآثار الضعيفة بل الموضوعة أحيانا لنصرة قول ما أو مذهب ما، والله العاصم من تلك المزالق لا إله غيره.

وإذا حدثت ففتش"[1]، أي: إذا أردت العلم فاجمع ما هب ودب وأما إذا أردت التحديث أو الفتوى أو العمل فانتقي الصحيح من الضعيف والراجع من المرجوح والناسخ من المنسوخ. إلخ.

وهذا كما هو معلوم لا ينسجم مع المنهجية التي سار عليها ابن كثير، فابن كثير كما علمنا يفتش عن الأسانيد ويفحص رجالها ويضعف ويصحح على نمط أئمة الجرح والتعديل من خريجي المدرسة الحديثية؛ ولذلك نجد ابن جرير يعتذر في مثل ذلك في كتبه الأخرى فيقول: "فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه، أو يستشنعه سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجها في الصحة، ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا، وإنما أتي من قبل بعض ناقليه إلينا، وإنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدي إلينا "[2].

وهذه المنهجية لا توافق المنهجية التي يفضلها ابن كثير والذي نجده يقول في مصدر آخر له متعقبا لابن جرير الطبري بإيراد تلكم الروايات في مصنفاته وتحديدا في تاريخه: "وفي بعض ما أوردناه نظر، ولولا أن ابن جرير وغيره من الحفاظ والأئمة ذكروه ما سقته، وأكثره من رواية أبي مخنف وقد كان شيعيًّا وهو ضعيف الحديث عند الأئمة، ولكنه إخباري حافظ[3]، عنده من هذه الأشياء ما ليس عند غيره، ولهذا يترامى عليه

(١) ينظر: تهذيب الكمال ٥٤٩/٣١.

(٢) تاريخ الرسل والملوك للطبري ٨/١.

(٣) والحفظ لا يقتضي التوثيق لأن قبول الرواية قائم على شقين: (الضبط) وهو نقل المروي كما تلقاه الراوي لفظًا أو معنى، و(العدالة) ويعرفه البعض: بأنه ملازمة التقوى والمروءة، وهي عند التحقيق: غلبة جانب الحسنات على السيئات عند الراوي، فإذا اختل أحدهما ردت الراوية (ينظر:رسوم التحديث في علوم الحديث ص ٢٠٦، لبرهان الدين إبراهيم بن عمر بن خليل الجعبريّ (ت ٧٣٢هـ)، بتحقيق: إبراهيم بن شريف الميلي، طبعة: دار ابن حزم – بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م)

كثير من المصنفين في هذا الشأن ممن بعده "[١]، هذا الخلاف في المنهجية أثر على طريقة كل منهما في التفسير فيما يدع ويروي مع اتفاقهما في باقي الأصول كما قررت.

ب- ومنها أن الطبري يسير في تفسيره على طريقة الرواية ثم الترجيح وهي عكس ما سار عليه ابن كثير غالبا الذي سار على طريقة التفسير بما يرجحه أولا، ثم نقل ما يؤيد ذلك ومن ثم يعرج على ما لا يوافق عليه أو ما يريد نقده وهو يجنح إلى طريقة ابن جرير في بعض الأحوال خاصة عند اختلاف الروايات لا سيما في أسباب النزول وغير ذلك. وانظر على سبيل المثال قصة نزول قوله - تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ٦﴾ [الحجرات:٦] في الوليد بن معيط والآثار التي رواها في ذلك[٢]، وغير ذلك من الأسباب التي ليس هذا موضع تتبعها وإنما يكفينا في هذا المقام الإشارة إلى وجود الاختلاف ووقوعه بين التفسيرين وإن اتفقا في جميع الأصول التفسيرية باستثناء ما ذكرت.

ومن تلكم الأمثلة: في قوله - تعالى-: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٞ مَّعْلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة:١٩٧] قال ابن كثير: "والذين قالوا: الفسوق هاهنا هو جميع المعاصي، معهم الصواب، كما نهى - تعالى- عن الظلم في الأشهر الحرم، وإن كان في جميع السنة منهيا عنه، إلا أنه في الأشهر الحرم آكد؛ ولهذا قال: ﴿مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡ﴾ [التوبة:٣٦]، وقال في الحرم: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الحج:٢٥]، واختار ابن جرير أن الفسوق هاهنا: هو ارتكاب ما نهي عنه في الإحرام، من قتل الصيد،

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٥٧٧/١١.

(٢) تفسير ابن كثير ٣٧١/٧.

وحلق الشعر، وقلم الأظفار، ونحو ذلك، كما تقدم عن ابن عمر، وما ذكرناه أولى، والله أعلم"[1].

هذا المثال من النماذج الواضحة في مخالفة ابن كثير لما اختاره الطبري في تفسيره على الرغم من اتفاقهم في الأصول التفسيرية فابن جرير أورد في هذه الآية أقوال ملخصها:

القول الأول: جميع المعاصي، وهذا قال به ابن عباس- رضي الله عنهما-، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبير، وقتادة، وعكرمة، وغيرهم.

القول الثاني: ما عصي الله به في الإحرام مما نهى عنه فيه خاصة، وهذا قال به عبدالله بن عمر ﷺ.

القول الثالث: المقصود به السباب، وهذا نقل عن ابن عباس وابن عمر ومجاهد والحسن وإبراهيم النخعي.

القول الرابع: المقصود به التنابز بالألقاب، وهذا قال به الضحاك بن مزاحم.

كل هذه الأقوال حكاها ابن جرير في تفسيره ثم قال: "وأولى الأقوال التي ذكرنا بتأويل الآية في ذلك، قول من قال معنى قوله: "ولا فسوق" النهي عن معصية الله في إصابة الصيد، وفعل ما نهى الله المحرِم عن فعله في حال إحرامه.

وسبب ترجيح ابن جرير لهذ القول هو: السياق، فقد قال الله – تعالى-: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ﴾ ، وهذا واضح أنه في الحج لعموم السياق الذي ورد في آيات الحج، ولأن ما نهى الله عنه في هذه الآية قد نهى عنه مطلقا؛ فدل ذلك على أن المقصود من هذه الآية هو ما نهى الله عنه في الحج خاصة وهو قتل

(١) المصدر السابق ١/٥٤٥.

صيد، وأخذ شعر، وقلم ظفر، وما أشبه ذلك مما خص الله به الإحرام وشبه ذلك بقوله – تعالى–: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ [الحجرات:١١] على الرغم من أنه قد حرم على المسلم سباب أخيه في كل حال في الحج وغيره(١).

وابن كثير رجح القول الأول وجعله أولى بالصواب ولم يجعل للسياق اعتبارًا لكون هذا ورد في القرآن الكريم نظائره واستدل بقوله – تعالى–: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة:٣٦] فالتحريم ليس خاصا بهذه الأشهر الحرم إلا أنه آكد في المعنى المقصود والملاحظ أن كلا المفسرين استدل على كلامه بشاهد من القرآن الكريم إلا أن ما ذهب إليه ابن كثير أقوى لعدة قرائن:

أ– استدلال ابن جرير بالسياق وبالسابق واللاحق وهو من مرجحات التفسير يضعفه ما اشتركت فيه الآية من الأوامر مع النواهي، وهو قوله: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ فلا يقال: إن التقوى المقصود هنا تقوى خاصة بقدر ما المقصود هو تأكيد الأمر على الالتزام بالتقوى.

ب– أن القول الذي قال به ابن كثير يشمل جميع الأقوال الأربعة وزيادة؛ فهو يشمل قول من قال: ما نهى الله عنه في الحج خاصة، وقول من قال: المقصود هنا هو السباب، وقول من قال: المقصود التنابز بالألقاب، فهي كلها داخلة في عموم المعاصي والذنوب.

وعلى كل فإن كلا القولين قوي ووجيه، وأما ما استدل به ابن كثير من قوله –تعالى–: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ فقد جعل ابن جرير

(١) ينظر تفسير الطبري ١٣٩/٤.

المعنى في قوله – تعالى-: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ راجع على ما قاله ابن كثير من تعظيم التحريم فيه فعلم صحة ما استدل به ابن كثير. قال الطبري في تفسيره: "وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب، قولُ من قال: فلا تظلموا في الأشهر الأربعة أنفسَكم، باستحلال حرامها، فإن الله عظمها وعظَّم حرمتها"(١)، والشأن هنا في الترجيح بينهما هو صحة إلحاق الآية بالآية على وجه القياس والله أعلم بالصواب.

ولعل هذه الآية تكون مما أغفل ابن جرير استحضاره، ففي بعض الأحيان أجد أن ابن كثير قد يشدد الوطأة على ما يقرره ابن جرير في مثل تلكم القياسات والإلحاقات، وانظر إليه مثلا في نقده له وهو يقول في قوله-تعالى-:﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة:١٧] بأنهم لم يؤمنوا في وقت من الأوقات، فتتبعه ابن كثير بقوله: "وزعم ابن جرير أن المضروب لهم المثل هاهنا لم يؤمنوا في وقت من الأوقات، واحتج بقوله-تعالى-:﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٨].

والصواب: أن هذا إخبار عنهم في حال نفاقهم وكفرهم، وهذا لا ينفي أنه كان حصل لهم إيمان قبل ذلك، ثم سلبوه وطبع على قلوبهم، ولم يستحضر ابن جرير –رحمه الله–، هذه الآية هاهنا وهي قوله –تعالى-: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون:٣]؛ فلهذا وجه ابن جرير هذا المثل بأنهم استضاؤوا بما أظهروه من كلمة الإيمان، أي: في الدنيا، ثم أعقبهم ظلمات يوم القيامة"(٢).

(١) المصدر السابق ١٤/٢٤٠.

(٢) تفسير ابن كثير ١/١٨٦.

والمقام يطول في تتبعه لابن جرير تارة بالموافقة، وتارة بالمعارضة، وأخرى بالتوجيه لا يتسع المكان لها.

نقده لأصحاب التفاسير : نقده لتفسير الزمخشري وغيره من المفسرين نموذجا

لقد رأينا نماذج وصورًا من انتقاد ابن كثير لمن يوافقه في الأصول التفسيرية، فكيف يكون الحال مع من يوافقه في الأصول التفسيرية، بله في الأصول الاعتقادية، إن ممن تعرض لهم ابن كثير في تفسيره بالتتبع والانتقاد هو الزمخشري وهو إمام من أئمة المعتزلة، وقد تتبعه ابن كثير في مواضع إلا أنه بالرغم من ذلك فإنه يعلم ما امتاز به من رجاحة عقل وفهم وسعة علم واطلاع فكان يسميه بالعلامة الزمخشري، ومن تلكم المواطن نقده لما ذهب إليه الزمخشري في قوله – تعالى–: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:٧]، يقول – رحمه الله– ناقلا عن ابن جرير: "وقال بعضهم: إنما معنى قوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ إخبار من الله عن تكبرهم، وإعراضهم عن الاستماع لما دعوا إليه من الحق، كما يقال: إن فلانا لأصم عن هذا الكلام، إذا امتنع من سماعه، ورفع نفسه عن تفهمه تكبرا، قال (ابن جرير): وهذا لا يصح؛ لأن الله قد أخبر أنه هو الذي ختم على قلوبهم وأسماعهم، قلت (ابن كثير): وقد أطنب الزمخشري في تقرير ما رده ابن جرير هاهنا وتأول الآية من خمسة أوجه وكلها ضعيفة جدًّا، وما جرأه على ذلك إلا اعتزاله؛ لأن الختم على قلوبهم ومنعها من وصول الحق إليها قبيح عنده – تعالى– الله عنه في اعتقاده.

ولو فهم قوله – تعالى–: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام:١١٠].

وما أشبه ذلك من الآيات الدالة على أنه – تعالى– إنما ختم على قلوبهم وحال بينهم وبين الهدى جزاء وفاقا على تماديهم في الباطل وتركهم الحق، وهذا عدل منه – تعالى– حسن وليس بقبيح، فلو أحاط علمًا بهذا لما قال ما قال، والله أعلم"(١).

ومقصوده هنا الرد على ما عند الزمخشري من اعتزاليات يلحظها ويلحظ تأثيرها على تفسيره كل من علم القضايا التي يخالف فيها أهل السنة المعتزلة أهل السنة والجماعة، ومن تلكم القضايا نسبة خلق الخير والشر إلى الله على حد السواء، فالمعتزلة يقولون بأن الله يقدر الخير فقط وأما الشر فهو من فعل الإنسان ولو قلنا بأن الله خلقه لعاد ذلك بالعكس على قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥] وقوله –جل وعلا–: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء:٢٦]، من أن الله يريد بنا الخير! وتجاهلوا الآيات التي تخبر بأن الله خلق الخير والشر وخلق كل شيء بلا استثناء.

وهذه من القضايا الكبيرة التي خالف فيها المعتزلة وتابعوا فيها الجهمية، وليس بين هذا الإثبات أعني إثبات خلق الله للشرور وبين إرادة الخير بخلقه تناقض، بل إن ذلك من كمال العدل والحرية أن يخلق الله في المخلوق الواحد الخير والشر معا ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس:٨]، وقال عمن يكتسب الآثام والخطايا إنما يكسبها بيده وبذنبه: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١١١].

(١) المصدر السابق ١/١٧٤.

وقوله – تعالى–: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة:٤٩] فما يقع فيه الناس هو من كسب يدهم والله قد خلق فيهم الخير والشر على السواء، لكنه سبحانه يمن على من يشاء بلطفه ويقصي من يشاء بعدله.

إلا أن هذا التفسير لا يوافق عليه الزمخشري بالطبع، وهو من هو عند المعتزلة فاعترض على هذا التأويل وعقب على ابن جرير وغيره على تأويله المبسوط والمشروح آنفا بقوله: "فإن قلت: ما معنى الختم على القلوب والأسماع وتغشية الأبصار؟ قلت: لا ختم ولا تغشية ثم على الحقيقة، وإنما هو من باب المجاز"(١).

حتى قال: " فإن قلت: فلم أسند الختم إلى الله – تعالى– وإسناده إليه يدل على المنع من قبول الحق والتوصل إليه بطرقه وهو قبيح والله – تعالى– عن فعل القبيح علوا كبيرا لعلمه بقبحه وعلمه بغناه عنه، وقد نص على تنزيه ذاته بقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق:٢٩] ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الزخرف:٧٦] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٢٨]، ونظائر ذلك مما نطق به التنزيل".

فجعل ذلك من قبل فعل رب العالمين ممنوع عنده ومن المعتزلة بشكل عام طلبا منهم للتنزيه، وقد خلط بين أمر الله الكوني وبين أمره الشرعي، فليس كل ما يخلقه الله يحبه ويريده سبحانه، بل إنه خلق بعض الأمور حكمة منه وابتلاء لعبادة حتى يميز الخبيث من الطيب، وهذه التأويلات الباطلة والتحريفات المعوجة هي أحد أسباب نفي أئمة كبار كابن تيمية والشنقيطي من وقوع المجاز في القرآن بل في اللغة، عند بحث أسباب ذلك؛ ولذلك يقول ابن تيمية – رحمه الله–: " لأن القرآن على ظاهره إلا أن تقوم حجة بأن يكون على خلاف ظاهره فإن قال قائل: ما أنكرتم أن يكون

(١) الكشاف ٤٨/١.

قوله – تعالى-: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ [يس:٧١] على المجاز؟ قيل له: حكم كلام الله على ظاهره وحقيقته ولا يخرج الشيء عن ظاهره إلى المجاز إلا بحجة "[١].

ولذلك فإن ابن كثير عقب على ما قاله الزمخشري ونقل الإجماع الذي حكاه القرطبي[٢] على صحة ما وصف الله به نفسه بالختم وأنه على الحقيقة لا على المجاز كما ادعاه الزمخشري طالبا لموافقة أصوله الاعتقادية.

ولم يكتف ابن كثير بنقد الزمخشري فقط من المعتزلة، بل تعقب غيره من المفسرين في تفاسيرهم كالرازي الذي تعقبه في نقله ما حكاه بعض المتصوفة من جعل مقام العبودية فوق مقام الرسالة !، فخطأ هذا الكلام واستدلالاتهم على حد السواء، ونقم على الرازي نقله لهذا الكلام دون تعقبه والرد عليه[٣]، بل إنه تعقب غير المفسرين كالفقهاء وغيرهم في تفسيره كابن عبد البر[٤] في اختياره القول بأن الصلاة الوسطى هي جميع الصلوات وغيرهم من العلماء وليس هذا موض بسط وإنما اردت مجرد الإشارة والبيان إلى شي من النقد عند ابن كثير وبالله التوفيق.

موقف ابن كثير من الإسرائيليات وتناولها بالنقد:

سبق أن ذكرت أن لابن كثير موقفًا شديدًا من الإسرائيليات، وهذا الموقف لا يجعله يتوانى في رد أو دفع أي رواية من الروايات الإسرائيلية الباطلة، بل نجد مواقف جد صارمة في ذلك، وهذا الموقف من أبرز ما يميز الحس النقدي، ولقد تتابع

(١) بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية ٣/٣٥٣.

(٢) ينظر تفسير القرطبي ١/١٨٧.

(٣) ينظر تفسير ابن كثير ١/ ١٣٦.

(٤) ينظر: الاستذكار ٢/١٩٣، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري القرطبي (ت ٤٦٣هـ)، بتحقيق: سالم محمد عطا، محمد علي معوض، طبعة: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م.

المفسرون بعده في نقدهم للإسرائيليات بناء على موقفه منها – – رحمه الله–– وكأنه نبههم عن أمر كانوا في غفلة منه وسأورد أمثلة تبين مدى تربصه لتلكم المرويات.

المثال الأول: في تفسير قوله – تعالى–: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ﴾ [البقرة: ١٠٢]

"وقد روي في قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين، كمجاهد والسدي والحسن البصري وقتادة وأبي العالية والزهري والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وغيرهم، وقصها خلق من المفسرين، من المتقدمين والمتأخرين، وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل، إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فيها، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله – تعالى–، والله أعلم بحقيقة الحال"(١).

المثال الثاني: قال عند تفسير قوله – تعالى– من سورة الكهف: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠] وذكر الأقوال في إبليس واختلاف المفسرين في ذكر ذلك بناءً على المرويات: «وقد روي في هذا آثار كثيرة عن السلف، وغالبها من الإسرائيليات التي تنقل لينظر فيها، والله أعلم بحال كثير منها، ومنها ما قد يقطع بكذبه، لمخالفته للحق الذي بأيدينا، وفي القرآن غنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة؛ لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان، وقد وضع فيها أشياء كثيرة، وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين ينفون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين.

(١) تفسير ابن كثير ١/٣٦٠.

كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء، والسادة والأتقياء، والبررة والنجباء، من الجهابذة النقاد، والحفاظ الجياد، الذين دونوا الحديث وحرروه، وبينوا صحيحه من حسنه من ضعيفه، من منكره وموضوعه ومتروكه ومكذوبه، وعرفوا الوضاعين والكذابين والمجهولين، وغير ذلك من أصناف الرجال كل ذلك صيانة للجناب النبوي والمقام المحمدي، خاتم الرسل وسيد البشر ﷺ أن ينسب إليه كذب أو يحدث عنه بما ليس منه فرضي الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم وقد فعل»[1].

المثال الثالث: قال عند تفسير سورة الأنبياء من قول – تعالى-: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٥١] إلى قوله: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء:٥٦]: "وما قصه كثير من المفسرين وغيرهم، فعامتها أحاديث بني إسرائيل، فما وافق منها الحق مما بأيدينا عن المعصوم قبلناه، لموافقته الصحيح، وما خالف منها شيئا من ذلك رددناه، وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة، لا نصدقه ولا نكذبه، بل نجعله وقفا، وما كان من هذا الضرب منها فقد رخص كثير من السلف في روايته، وكثير من ذلك مما لا فائدة فيه، ولا حاصل له مما ينتفع به في الدين، ولو كانت فائدته تعود على المكلفين في دينهم لبينته هذه الشريعة الكاملة الشاملة، والذي نسلكه في هذا التفسير الإعراض عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية، لما فيها من تضييع الزمان، ولما اشتمل عليه كثير منها من الكذب المروج عليهم، فإنهم لا تفرقة عندهم بين صحيحها وسقيمها كما حرره الأئمة الحفاظ المتقنون من هذه الأمة"[2].

(١) المصدر السابق ١٨٦/٦.

(٢) المصدر السابق ٣٤٧/٥.

المثال الرابع: ونجده يقول عند تفسيره لسورة النمل من قوله – تعالى–: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل:٤١] إلى قوله: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل:٤٤] بعد أن ذكر في قصة ملكة سبأ أثرًا عن ابن عباس وصفه بالغرابة قال:" قلت: بلهو منكر غريب جدا، ولعله من أوهام عطاء بن السائب على ابن عباس، والله أعلم. والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب، مما وجد في صحفهم، كروايات كعب ووهب، سامحهما الله فيما نقلاه إلى هذه الأمة من أخبار بني إسرائيل، من الأوابد والغرائب والعجائب، مما كان وما لم يكن، ومما حرف وبدل ونسخ، وقد أغنانا الله سبحانه عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ، ولله الحمد والمنة"[(١)].

والأمثلة من تفسيره في ذلك كثيرة، والشاهد منها بيان أنه يكثر من التدقيق والتتبع للإسرائيليات[(٢)] التي جاءت في التفسير وعلقت بها وتنقلها المفسرون كابرا عن كابر حتى أصبحت مما لا ينكر، بل يروى على أنه من مسلمات التفسير ومقتضياته فشن حملة واسعة النطاق على هذه الإسرائيليات ولقد انتبه إلى خطورة ذلك على التفسير بشكل مباشر وعلى القرآن الكرين بشكل غير مباشر غالب من ألف في التفسير بعده واطلع في تفسيره على تلكم النقود العلمية الثمينة التي أسس قواعدها ودعمها لما

(١) تفسير ابن كثير ١٩٧/٦.

(٢) ولمزيد مطالعة في منهجيته في نقد الإسرائيليات ينظر: رسالة: (موقف ابن كثير من الإسرائيليات في ضوء تفسيره)، لـ محمد إبراهيم تراوي، وهي رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية القرآن الكريم والدراسات الإسلامية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ١٤١٤هـ غير مطبوعة، ورسالة: منهج ابن كثير في روايته ونقده للإسرائيليات، لـ مصطفى محمد خان، وهي رسالة ماجستير في الجامعة الأردنية ٢٠٠٤م.

اجتمع فيه من علو كعب في العلم ودقة في الفهم وإحاطة بالسنة النبوية وعلومها الحديثية كعلم الرجال والعلل والجرح والتعديل.

المبحث الخامس
أثر منهج ابن كثير النقدي في التفاسير المتأخرة

لقد كان بسبب هذه المواقف المشهودة لابن كثير تجاه المفسرين وتتبعه لهم لا سيما المبرزين منهم كابن جرير والرازي والزمخشري الأثر البالغ على من بعده من المفسرين، فكل من جاء بعد ابن كثير من المفسرين ممن تنبه إلى الإسرائيليات والموضوعات والأحاديث، إنما تأثر بما أدلى به ابن كثير في تفسيره خاصة فيما يخص الإسرائيليات والتي كانت قد التصقت وبشكل كبير في التفسير.

يقول الدكتور محمد الذهبي – رحمه الله–:" ومما يمتاز به ابن كثير، أنه يُنَبِّه إلى ما فى التفسير المأثور من منكرات الإسرائيليات، ويُحَذِّر منها على وجه الإجمال تارة، وعلى وجه التعيين والبيان لبعض منكراتها تارة أخرى"(١).

ولقد بلغ تأثر المفسرين لا سيما المتأخرين منهم بابن كثير حدا كبيرا ومبلغا عظيما إلى درجة أنهم أصبحوا يعتمدون ما ذهب إليه في تفسيره على أنه عامل من عوامل الترجيح كما الحال مع تفسير الطبري والأمثلة على ذلك كثيرة، فهذا الآلوسي يذكرعنه في تفسيره لسورة الإسراء تخطئته لمن جعل المعراج بالبراق قائلا: "ووهَّم الحافظ ابن كثير – كما قال الحلبي – القائلين – ومنهم صاحب الهمزية –: إن عروجه ﷺ على البراق"(٢)، ونقل عنه إبطاله لقصة عوج الطويلة التي وقعت في زمن نوح بقوله: "قد

(١) التفسير والمفسرون ١/١٧٤.

(٢) روح المعاني ٨/١١.

شاع أمر عوج عند العامة ونقلوا فيه حكايات شنيعة، وفي فتاوى العلامة ابن حجر قال الحافظ العماد ابن كثير: قصة عوج وجميع ما يحكون عنه هذيان لا أصل له، وهو من مختلقات أهل الكتاب، ولم يكن قط على عهد نوح عليه السلام ولم يسلم من الكفار أحد"[(١)].

ومن صور اعتماد أقواله في الترجيح عنده قوله في وقت صلاة النبي ﷺ بالأنبياء هل كان قبل المعراج أم بعده، فذهب إلى ما ذهب إليه ابن كثير دون غيره من أنه كان بعد المعراج[(٢)].

وكذلك فعل محمد رشيد رضا – رحمه الله– في تفسيره لسورة الفاتحة، حيث قال في تحرير النزاع في مخرج الضاد والظاء عند القرّاء في قراءة (الضالين) موردا لما قاله ابن كثير: "قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: والصحيح من مذاهب العلماء أنه يغتفر الإخلال بتحرير ما بين الضاد والظاء لقرب مخرجيهما، وذلك أن الضاد مخرجها من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس، ومخرج الظاء من طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا، ولأن كلا من الحرفين من الحروف المجهورة ومن الحروف الرخوة ومن الحروف المطبقة، فلهذا كله اغتفر استعمال أحدهما مكان الآخر لمن لا يميز ذلك، والله أعلم، وأما الحديث: "أنا أفصح من نطق بالضاد" فلا أصل له [(٣)]، وقال (رشيد رضا): إن أكثر أهل الأمصار العربية قد أرادوا الفرار من جعل الضاد ظاء، كما يفعل الترك وغيرهم من الأعاجم، فجعلوها أقرب إلى الطاء منها إلى الضاد حتى القراء المجودون منهم"[(٤)].

(١) المصدر السابق ٣/٢٥٩.

(٢) ينظر روح المعاني ٨/١٣.

(٣) تفسير ابن كثير ١/١٤٣.

(٤) تفسير المنار ١/٨٣.

وممن اعتمد على ابن كثير في مثل ذلك لا سيما في انتقاد ما يراه ضعيفا محمد الأمين الشنقيطي؛ ففي تفسيره لسورة مريم وتحديدا عند قوله – تعالى–: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا﴾ [مريم:٥٩] نجده يستدل بكلام ابن كثير في التصحيح والتضعيف فيقول: "وجاء حديث مرفوع بمقتضى هذا القول من حديث أبي أمامة وابن عباس، فيه أن النبي ﷺ قال: «**إن غيا واد في جنهم**» كما في حديث ابن عباس، وفي حديث أبي أمامة: إن غيا، وأثاما: نهران في أسفل جهنم، يسيل فيهما صديد أهل النار، والظاهر أنه لم يصح في ذلك شيء عن النبي ﷺ، وقد ذكر ابن كثير في تفسير هذه الآية حديث أبي أمامة صدي بن عجلان الباهلي الذي أشرنا له آنفا، ثم قال: هذا حديث غريب ورفعه منكر"[(١)] وهذا في التضعيف.

وأما في التصحيح فينظر ما اعتمد فيه على تصحيح ابن كثير لحديث أبي هريرة: أن المعيشة الضنك هي عذاب القبر في قوله – تعالى–: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ [طه:١٢٤]، ويجدر بي هنا الإشارة إلى أن الشنقيطي يكاد يكون أكثر المفسرين موافقة لما قرره ابن كثير، بل إنه في بعض المواضع كان ينافح عما قرره في تفسيره وانظر ما قاله في تفسير: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧]، واستحسانه لما ذهب إليه ابن كثير[(٢)] وغيرها من المواضع الكثير، وليس معنى هذا أنه لا يخالفه بل وقع في مواضع متعددة ومختلفة أنه خالف ما ذهب إليه ابن

(١) أضواء البيان ٣/٤٤٦.

(٢) المصدر السابق ٤/١٥٩.

كثير، ومنها تأويله لقوله – تعالى–: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الحشر:٥].

ذهب فيها ابن كثير إلى أن وقوع القطع هنا أمر قدري كوني أي أن الله قدره كذلك ولم يأمر به، ولعل ما دفع المفسرين إلى ذلك شبهة إهلاك الزرع ومظاهر الحياة التي تنسب للإسلام، وهذا ما لم يؤثر على ما ذهب إليه الشنقيطي فقد خالفه الشنقيطي في ذلك ووجه الشبهة التي قد ترد على قطع الزروع أو النخيل مقررا من أن القطع هنا أمر شرعي، أي أن الله أراده وأمر النبي ﷺ به أصحابه يقول – رحمه الله–: «قال ابن كثير وغيره: إن قوله – تعالى–: فبإذن الله. أي: الإذن القدري والمشيئة الإلهية، أي كما في قوله – تعالى–: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٦٦].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ [آل عمران:١٥٢]، والذي يظهر والله – تعالى– أعلم أن الإذن المذكور في الآية هو إذن شرعي، وهو ما يؤخذ من عموم الإذن في قوله – تعالى–: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج:٣٩].

لأن الإذن بالقتال إذن بكل ما يتطلبه بناء على قاعدة: الأمر بالشيء أمر به وبما لا يتم إلا به، والحصار نوع من القتال، ولعل من مصلحة الحصار قطع بعض النخيل لتمام الرؤية، أو لإحكام الحصار، أو لإذلال وإرهاب العدو في حصاره وإشعاره بعجزه عن حماية أمواله، وممتلكاته، وقد يكون فيه إثارة له؛ ليندفع في حمية للدفاع عن ممتلكاته وأمواله، فينكشف عن حصونه ويسهل القضاء عليه، إلى غير ذلك من الأغراض الحربية، والتي أشار الله – تعالى– إليها في قوله: وليخزي الفاسقين أي: بعجزهم وإذلالهم وحسرتهم، وهم يرون نخيلهم يقطع، ويحرق فلا يملكون له دفعا.

وعلى كل فالذي أذن بالقتال وهو سفك الدماء، وإزهاق الأنفس، وما يترتب عليه من سبي وغنائم لا يمنع في مثل قطع النخيل إن لزم الأمر، ويمكن أن يقال: إن ما أذن فيه رسول الله ﷺ فبإذن الله أذن، وبهذا يمكن أن يقال: إذا حاصر المسلمون عدوا، ورأوا أن من مصلحتهم أو من مذلة العدو إتلاف منشآته وأمواله، فلا مانع من ذلك، والله – تعالى– أعلم»[1].

وكذلك اعتمد ابن عاشور كلامه في الأحاديث تصحيحا وتضعيفا فقد نقل كلامه عند تفسيره لقوله – تعالى–: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:١٠٦] واستنكر ابن عاشور ما نقل عن المفسرين في ذلك ناقلا نقد ابن كثير لدليلهم بقوله: "ومما يقف منه الشعر ولا ينبغي أن يوجه إليه النظر ما قاله بعض المفسرين في قوله – تعالى–: (ننسها) أنه إنساء الله – تعالى– المسلمين للآية أو للسورة، أي إذهابها عن قلوبهم أو إنساؤه النبيء ﷺ إياها فيكون نسيان الناس كلهم لها في وقت واحد دليلا على النسخ واستدلوا لذلك بحديث أخرجه الطبراني بسنده إلى ابن عمر قال: «قرأ رجلان سورة أقرأهما إياها رسول الله ﷺ فقاما ذات ليلة يصليان فلم يقدرا منها على حرف فغديا على رسول الله ﷺ فذكرا ذلك له فقال لهما: «إنها مما نسخ وأنسي فالْهَوْا عنها».

ثم قال ابن عاشور: "قال ابن كثير: هذا الحديث في سنده سليمان بن أرقم وهو ضعيف، وقال ابن عطية: هذا حديث منكر أغرب به الطبراني، وكيف خفى مثله على أئمة الحديث، والصحيح أن نسيان النبيء ما أراد الله نسخه ولم يرد أن يثبته قرآنا جائز، أي لكنه لم يقع فأما النسيان الذي هو آفة في البشر فالنبيء معصوم عنه قبل

(١) المصدر السابق ٢٩/٨.

التبليغ، وأما بعد التبليغ وحفظ المسلمين له فجائز، وقد روي أنه أسقط آية من سورة في الصلاة فلما فرغ قال لأبي: لِمَ لَمْ تذكرني قال حسبت أنها رفعت قال: لا ولكني نسيتها "أهـ[1].

بل إن ابن عاشور وغيره أحال في كثير من المواضع في التفسير على تفسير ابن كثير، لا سيما في المسائل المفتقرة إلى البسط والاستيعاب في نقل الأقوال أو الروايات، ومن تلكم المواضع ما فعله في رده على الشيعة الاثنا عشرية وإبطال محاولاتهم قصر قوله – تعالى–: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب:٣٣] على علي وفاطمة والحسنين دون أزواجه ﷺ، فنجده يذكر عن ابن كثير استيعابه للروايات التي نقلت في هذا الباب وبيان أن ليس منها رواية واحدة تشير إلى مرادهم إلا رواية واحدة نقلها لابن كثير عن الطبري وفيها مقال يقول – رحمه الله–: "وقد استوعب ابن كثير روايات كثيرة من هذا الخبر مقتضية أن أهل البيت يشمل فاطمة وعليا وحسنا وحسينا؟ وليس فيها أن هذه الآية نزلت فيهم إلا حديثا واحدا نسبه ابن كثير إلى الطبري ولم يوجد في تفسيره عن أم سلمة أنها ذكر عندها علي بن أبي طالب فقالت: فيه نزلت: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ وذكرت خبر تجليله مع فاطمة وابنيه بكساء (وذكر مصحح طبعة «تفسير ابن كثير» أن في متن ذلك الحديث اختلافا في جميع النسخ ولم يفصله المصحح)، وقد تلقف الشيعة حديث الكساء فغصبوا وصف أهل البيت وقصروه على فاطمة وزوجها وابنيهما عليهم الرضوان، وزعموا أن أزواج النبيء ﷺ لسن من أهل

(١) التحرير التنوير ٦٦٢/١.

البيت وهذه مصادمة للقرآن بجعل هذه الآية حشوا بين ما خوطب به أزواج النبيء"[1].

والأمثلة على ذلك كثيرة من تلكم التفاسير والتي تؤكد عمق الأثر الذي تركه ابن كثير وكذلك الطبري قبله على المفسرين لا سيما المتأخرين الذين وافقوا وواكبوا التطور والتغيير العالمي والذي احتاج التفسير معه إلى تغيير وثورة على الإسرائيليات والموضوعات والآثار الضعيفة والتأويلات الباطلة التي التصقت بالتفسير؛ حتى كادت تذهب رونقه وتذهب بجماله وبهائه، بل تصرف وجوه الناس عنه [2].

(١) التحرير والتنوير ١٦/٢٢.

(٢) ولقد تناولت في رسالتي للماجستير صور الأصحاب تلكم الحملات النقدية المعاصرة ومناهجهم في التفسير، وألقيت الضوء على منهجيتهم في النقد من خلال ضرب الأمثلة الحية من تفاسيرهم ومحاولة معرفة أشكال تلك الانتقادات بأنواعها المختلفة، كما قمتبسبر طريقة كل مفسر وأصوله في النقد، مع إلحاقها بشيء من التعقيب تارة من باب الموافقة أو المخالفة أو من باب البسط والشرح تارة آخرى .

الخاتمة

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على عبده المصطفى ونبيه المجتبى ، صلى الله عليه وعلى آلهوصحبه وسلم، **وبعد:**

فقد توصلت من خلال البحث في هذا الموضوع إلى عدة نتائج؛ من أبرزها:

١- رزق ابن كثير – رحمه الله– بصفات أهلته لتكوين ملكة التفسير والبراعة فيه والنقد في آن واحد .

٢- ترك ابن كثير – رحمه الله– مجموعة ثمينة من المؤلفات التي كانت حصيلة ما منَّ الله به عليه من علم وفهم.

٣- انطبع ما برع فيه ابن كثير من العلوم والفنون على تفسيره فمن تأمل تفسيره وجد من حسن الترتيب والتأليف ما لم يتوفر لغيره.

٤- كثير ممن جاء بعد ابن كثير اقتبس من فنياته في تفسيره.

٥- اعتمد ابن كثير في تفسيره على مصادر كثيرة جدًا ومتنوعة من تفاسير وكتب أحاديث وتاريخ وسير ولغة.

٦- يعتمد ابن كثير في تفسيره طريقة منهجية مطردةً لا يكاد يحيد عنها.

٧- يمتاز ابن كثير عن غيره من المفسرين بأنه يفسر الآية بعبارة سهلة، وبأسلوب مختصر يوضح فيه المعنى المراد نائيًا بالتفسير عن العبارات التي يشوبها شيءٌ من الغموض .

٨- امتاز ابن كثير – رحمه الله– في تفسيره بالحس النقدي العالي وهذا من أبرز ملامح تفسيره.

٩- سبق أن ذكرت أن لابن كثير موقفًا شديدًا من الإسرائيليات، وهذا الموقف لا يجعله يتوانى في رد أو دفع أي رواية من الروايات الإسرائيلية الباطلة.

١٠- لم يقتصر ابن كثير في تناوله للإسرائيليات بل إن نقده تعدى ذلك بمراحل ليشمل الآراء الاعتقادية ومخرجاتها والتفسيرية وعلومها والفقهية وذيولها والأصولية وفروعها إلى آخر ذلك من العلوم لاسيما أصحاب الأقوال القوية والاختيارات المعروفة.

١١- مما يمتاز به ابن كثير، أنه يُنَبِّه إلى ما فى التفسير المأثور من منكرات الإسرائيليات، ويُحَذِّر منها على وجه الإجمال تارة، وعلى وجه التعيين والبيان لبعض منكراتها تارة أخرى

١٢- تعرض ابن كثير في تفسيره لنقد بعض أصحاب التفاسير: كالطبري والزمخشري.

١٣- أثر ابن كثير كثيرًا فيمن جاء بعده من المفسرين إلى درجة أنهم أصبحوا يعتمدون ما ذهب إليه في تفسيره على أنه عامل من عوامل الترجيح.

١٤- ممن اعتمد على ابن كثير في مثل ذلك لاسيما في انتقاد ما يراه ضعيفا: محمد الأمين الشنقيطي.

فهرس المصادر والمراجع

١- **الاستذكار**، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري القرطبي (ت ٤٦٣هـ)، بتحقيق: سالم محمد عطا، محمد علي معوض، طبعة: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م.

٢- **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، للشنقيطي: محمد الأمين بن محمد بن مختار الجنكني، مصور عن الطبعة الثانية، عالم الكتب، ١٣٨٣هـ .

٣- **البداية والنهاية**، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء – ط مكتبة المعارف– بيروت.

٤- **بيان تلبيس الجهمية أو نقض تأسيس الجهمية**، لشيخ الإسلام أبي العباس أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية الحرَّاني الدمشقي، تصحيح وتعليق وتكميل محمد بن عبد الرحمن بن قاسم، مؤسسة قرطبة.

٥- **تاريخ الطبري**، تاريخ الرسل والملوك: لمحمد بن جرير الطبري ت٣١٠هـ، حققه: محمد أبو الفضل إبراهيم، ونشرته: دار المعارف بمصر، ١٣٩٩هـ.

٦- **التاريخ الكبير**، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري صاحب الصحيح (ت ٢٥٦هـ)، بتحقيق: محمد عبدالمعيد خان، طبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد – الدكن– الهند.

٧- **تفسير التحرير والتنوير**، محمد الطاهر بن عاشور – الدار التونسية للنشر.

٨- **تفسير المنار**، محمد رشيد رضا. بيروت، دار المعرفة، عام ١٤١٤هـ.

٩- **التفسير والمفسرون**، د. محمد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٤(١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م .

١٠- **تهذيب الكمال**، تأليف: يوسف بن الزكي عبدالرحمن أبو الحجاج المزي، مؤسسة الرسالة -بيروت- ١٤٠٠- ١٩٨٠م الأولى، تحقيق: بشار عواد معروف.

١١- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٤م.

١٢- **الجامع الصحيح**، للإمام البخاري أبي عبد الله محمد بن إسماعيل، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، إستانبول،تركيا.

١٣- **الجامع الصحيح**، لمسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق وترتيب محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٧٩م.

١٤- **جامع المسانيد**، جمع فيه بين مسند الإمام أحمد والبزار وأبي يعلى ومعجمي الطبراني مع الكتب الستة: الصحيحين والسنن الأربعة، ورتبه على الأبواب بتحقيق الدكتور عبدالملك بن عبد الله الدهيش، طبعته دار خضر في بيروت بجمهورية لبنان، سنة ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م.

١٥- **الجرح والتعديل** لأبي محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (ت٣٢٧هـ)، طبعة: مجلس دائرة المعارف العثمانية - بحيدر آباد الدكن — الهند، ونشرتها: دار إحياء التراث العربي — بيروت، الطبعة الأولى: ١٢٧١هـ- ١٩٥٢م.

١٦- **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة** ، لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، بتحقيق: محمد عبد المعيد ضان، طبعة ونشر: دائرة المعارف العثمانية -حيدر آباد الهند، الثانية: ١٣٩٢هـ.

١٧- **الرد الوافر** لابن عبدالهادي محمد بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن مجاهد القيسي الدمشقي الشافعي، شمس الدين، الشهير بابن ناصر الدين (ت ٨٤٢هـ)، بتحقيق: زهير الشاويش، طبعة: المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة الأولى: ١٣٩٣هـ.

١٨- **رسوم التحديث في علوم الحديث** لبرهان الدين إبراهيم بن عمر بن خليل الجعبريّ (ت ٧٣٢هـ)، بتحقيق: إبراهيم بن شريف الميلي، طبعة: دار ابن حزم – بيروت الأولى: ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م) .

١٩- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، أبو الفضل محمود الألوسي، دار إحياء التراث العربي بيروت.

٢٠- **سنن الترمذي** - الإمام أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة الترمذي توفى سنة ٢٧٩هـ - تحقيق أحمد محمد شاكر - مطبعة مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة - الطبعة الأولى سنة ١٣٥٦هـ/١٩٣٧م. تفسير ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير، صححها لجنة من الأساتذة المتخصصين، دار الخير، بيروت، دمشق، ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م .

٢١- **الضعفاء الكبير** لأبي جعفر محمد بن عمرو بن موسى بن حماد العقيلي المكي (ت ٣٢٢هـ)، بتحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، طبعة: دار المكتبة العلمية – بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

٢٢- **طبقات الحفاظ** لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، طبعة: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٠٣هـ.

٢٣- **طبقات المفسرين**- محمد بن علي بن أحمد الداوودي شمس الدين- الناشر: دار الكتب العلمية؛ سنة النشر: ١٤٠٣ – ١٩٨٣م.

٢٤- **الكامل في ضعفاء الرجال** لأبي أحمد بن عدي الجرجاني (ت ٣٦٥هـ)، بتحقيق: مجموعة من المحققين، طبعة: الكتب العلمية - بيروت-لبنان، الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٢٥- **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل** - جار الله أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري- دار الكتاب العربي— بيروت الطبعة: الثالثة ١٤٠٧هـ

٢٦- **لسان العرب**، تأليف: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر - بيروت، الطبعة: الأولى.

٢٧- **مباحث في علوم القرآن** د.صبحي الصالح، طبعة: دار العلم للملايين، الرابعة والعشرون: ٢٠٠٠م.

٢٨- **مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار**، لمحمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم الدارمي، البُستي (ت ٣٥٤هـ)، بتحقيق: مرزوق علي ابراهيم، طبعة: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع — المنصورة، الطبعة الأولى: ١٤١١ هـ - ١٩٩١م.

٢٩- **المعجم الصغير لرواة الإمام ابن جرير الطبري** لأكرم بن محمد زيادة الفالوجي الأثري،ط الدار الأثرية، الأردن.

٣٠- **المعجم المختص بالمحدثين** لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، بتحقيق: د.محمد الحبيب الهيلة، طبعة: مكتبة الصديق— الطائف— المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ.

٣١- **معجم مقاييس اللغة**، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الإعلام الإسلامي، طهران .

٣٢- **مفاتيح الغيب**، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري - دار إحياء التراث العربي — بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠هـ .

٣٣- **منهج ابن كثير في روايته ونقده للإسرائيليات**، لـ مصطفى محمد خان، وهي رسالة ماجستير في الجامعة الأردنية ٢٠٠٤م.

٣٤- **موقف ابن كثير من الإسرائيليات في ضوء تفسيره**، لمحمد إبراهيم تراوي، وهي رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية القرآن الكريم والدراسات الإسلامية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ١٤١٤هـ.

٣٥- **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، ليوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (ت ٨٧٤هـ)، ط وزارة الثقافة مصر - سنة ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م.

محتويات البحث

المحتوى	الصفحة
المبحث الأول: التعريف بابن كثير	
المطلب الأول: اسمه ونسبه ومولده	
المطلب الثاني: طلبه العلم	
المطلب الثالث: صفاته	
المطلب الرابع: مؤلفات ابن كثير	
المطلب الخامس: وفاة ابن كثير	
المبحث الثاني: أهم مصادر ابن كثير في تفسيره	
مصادره في التفسير	
مصادره في علوم القرآن	
مصادره في كتب الحديث والسنن	
مصادره في الفقه وأصوله	
مصادره في التاريخ والتراجم	
مصادره في اللغة	
مصادره في علوم مختلفة	
المبحث الثالث: منهج ابن كثير في تفسيره	
منهج ابن كثير في التفسير من حيث الجملة	
منهج ابن كثير في التفسير من حيث التفصيل	
المبحث الرابع: منهج ابن كثير في النقد	

نقده لما يروى عن الصحابة في التفسير وحقيقة وقوعه	
نقده لما يروى عن التابعين في التفسير	
نقده لأصحاب التفاسير المختلفة	
موقف ابن كثير من الإسرائيليات وتناولها بالنقد	
المبحث الخامس: أثر منهج ابن كثير النقدي في التفاسير المتأخرة	
الخاتمة	
فهرس المصادر والمراجع	
المحتويات	